نخلة

كتاب الملوك

تجليد
صالح الاشقر
بيروت -

JAFET LIB.

كتاب الملوك

« مطبعة دار الكتب » — بيروت
حق اعادة الطبع محفوظ للمؤلف

للمؤلف

في الأدب :

١ – « كتاب المئة » .

وهو مائة كلمة ، اختارهـا المؤلف ، من « النهج » ، وعلق على الكلمة المختارة ما تحتاج اليه من شرح الامام السيد محمد عبده . في « مطبعة العرفان » ، في صيدا ، سنة ١٩٣١ .

٢ – « المفكرة الريفية » .

الطبعة الاولى ، معها « قصة الفردوس الارضي » . في « مطبعة الكشاف » ، في بيروت ، سنة ١٩٤٢ .

الطبعة الثانية ، معها « المراسلة المطرانية » و « مناظرة لغوية في حرفين من المفكرة » . في « دار الطباعة والنشر الشرقية » ، في بيروت سنة ١٩٤٥ .

الطبعة الثالثة ، معها « قصة الفردوس الارضي » و « المراسلة المطرانية » و « مناظرة لغوية في حرفين من المفكرة » . في « المطبعة العصرية » ، صيدا ، سنة ١٩٥٤ .

٣ – « دفتر الغزل » .

الطبعة الاولى ، معها « الخصوصيات » و « الاخوانيات » . في « المطبعة العصرية » ، في صيدا ، سنة ١٩٥٢ .

٤ – « تحت قناطر أرسطو » .

الطبعة الاولى ، معها « حول القناطر » و « بين الكرة والطست » و « ملحق » . في « مطبعة الجريدة » ، في بيروت ، سنة ١٩٥٤ .

في اللغة :

« كتاب الدقائق » .

نقود واصلاحات ، وقد نشر اول مرة في مجلة « المشرق » . في « المطبعة

الكاثوليكية » في بيروت ، سنة ١٩٤٤ .

في القانون :

١ - « احكام الوقف » في الفقه والقانون .

(في ستة اجزاء) يحتوي المذاهب المعول عليها ، والفتاوى المعمول بها ، والشرائع والاجتهادات العثمانية واللبنانيـــة والسورية المحدثة ، الجزء الاول ، في « المطبعة المخلصية » (صيدا) ، سنة ١٩٣٨ .

٢ - « الصلح الباطل ورد بدله » على الشرع الاسلامي ، والقانونين اللبناني والفرنسي . في « مطبعة الكشاف » ، في بيروت ، سنة ١٩٤١ .

٣ - « مجموعة القوانين الطارئة » .

عليهـــا تعاليق للمؤلف ، مسهبة . في « مطبعة الكشاف » . في بيروت ، سنة ١٩٣٩ .

في التأريخ :

« الأثارة التأريخية » .

يدور على مخطوط « للادهمي » ، وعلى حوادث ونوازل لبنانية . وقد نشر اول مرة في مجلة « المشرق » . في « المطبعة الكاثوليكية » ، في بيروت ، سنة ١٩٤٥ .

920.02
N16kA

كتاب الملوك

مع « وجوه غائبة » و « في سبيل الصواب »

امين نخلة

الطبعة الاولى في سنة ١٩٥٤
منشورات « مطبعة دار الكتب » - بيروت

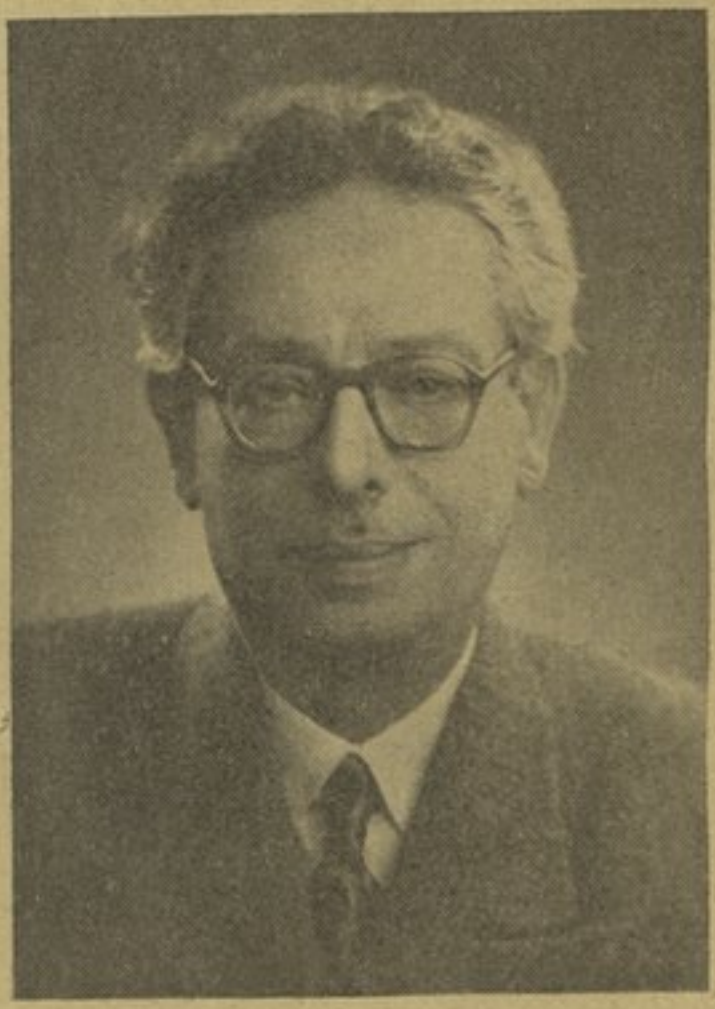

الاستاذ نخله (في سنة ١٩٥٤)

مقدمة

في هذا الكتاب : تأبين ملك ، وذكرى ملك ، وتحيَّة ملك ، وخطاب الى ملك ، وكلام على ملك للعرب ، هو الدائم الملك فيهم ، على تطاول الأيام . لذلك يقع هذا الاسم (كتاب الملوك) على هذا المسمَّى .

امَّا ملاحق الكتاب ، فانَّ الشَّطر الأوَّل ، منها ، يدور على وجوه عزيزة ، قد توارت في الحجاب . وانَّما هو يدور ، في الغالب ، على ما كان لها ، بنفسها ، من لمعان في أدب ، أو علم ، أو عمل لبنانيّ ، أو عربيّ ، عظيم ، وعلى ما يحرِّك مغيبها من اضاآت ، في وهدة الماضي ، حبيبة الى القلوب ، والخواطر . وامَّا الشَّطر الآخر ، فهو يعطف على اشياآء من مواجيد النَّفس بالمعرفة ، وصباباتها بتخليص الحقائق .

وعلى الجملة : فانَّ هذا الكتاب أوَّله التفات الى الماضي ،

وآخره التفات الى اليوم القائم ، وما سوف يأتي بعده ، في الزَّمن . جمع ماضياً ، وجمع حاضراً ، وآتياً - أي كما يصنع الفكر الانسانيّ ، في ملازمته الصحيحة لمقتضى الحياة ...

« في شهر آذار ، من سنة ١٩٥٤ »

امين نخلة

كتاب الملوك

... النفس الى فوائد الملوك ، والحديث عنهم ، أفرم واشهى ، منها الى فوائد السوقة ، ومن أشبههم .

الجاحظ

في « التاج »
(المنسوب اليه)

بين مصر ولبنان

هي الخطبة التي القاها المؤلف يوم المهرجان، في عرس الملك فاروق، سنة ١٩٣٨ . وقد حضر المؤلف العرس مندوباً عن لبنان، عامة، وعن الصحافة، فيه، خاصة .

باسم القلم، في لبنان، بل باسم القلم اللبنانيّ، في كلّ ارض، بل باسم اللبنانيّين، في دارهم، وفي كلّ دار لهم، على جنبات المعمور، أرفعُ هذا الصوت على النيل، في فرحة البيت المصريّ بصاحب التاج، فينجلي الحجاب، ويبشُّ وقار المُلْك، ويأنس عرش « محمد عليّ » لرسول الأحبَّة، من أرض « بشير » !

فيا فاروق :

يا لابس المطرف « العَلَويّ »، ووارث الميثاق ! هذه رسالات الوفآء، في يدي، احملها اليك، من ورآء قناة

« السويس » ، من نهايات شطّها الآخر ، حيث لاتنبسط القناة ، في ظنّ القلوب ، بين بيروت والقاهرة ، ولا تشطر دار الهوى ، في خطرات « محمد عليّ » ، وسرائر « بشير » . فكأنّ معاول « دي ليسّبس » ، عند عقدة « الابيض المتوسط » و « الاحمر » ، ووشك التلاقي بين لوني آسيا وافريقيا ، في مخطّط الدنيا ، لم يُسمع لها رنّة ، على الساحل الشرقيّ ، من « المتوسط » .

وهكذا تسلم علاقة الماضي ، بين جبل المقطّم ، وجبل الأرز ، لا يحول دونها خطّ « السويس » ، في الخارطة ، وهي من إرث الوجدان ، قبل عهد الخلائق بالورق ...

كان التراب أمس - كما تدري - أوفر أثراً من الماء ، في علائق البشر ، وعمار الممالك ، ونقل المدنيّات . بل هو كان مدار العقل القديم ، في تأليف الامم ، ومزج الاجناس ، قبل ان يصبح المدار على دم العرق ، وهوى الضمير ، ولغة الفم . ففي ذلك الأبد السحيق كان من المتحتّم أن يغدو هذا

الشاطئ المشرقيّ ، المنطرح من مباسط « طوروس » ، الى مشارف « اسوان » ، ملعباً لدورين ، ينقص تاريخ البشر يوم يسقط لهما ذكر . لنا دور منهما ، ولمصر الآخر . فرجّت كرة الأرض ، يومئذٍ ، من الحركة المشرقيّة . فانّ الملعب عريض ، قبالة الأمم ، على « المتوسط » ، والرواية رواية المدنيّة ، واصحابها اساتذة الأزمنة ، في رفع الحجر الى الجوّ ، واخراج النبتة من الارض ، وإبراز خاطرة البال في حلّة الحرف ، وربط هذه المخيّلة البشرية بالغيب العالي . فشهدت الدنيا القديمة ، للمرّة الأولى ، كيف العهد بآفاق يُراد لها وحدة ، وشعوب يُراد لها تأليف . واذا الشمس لا جديد تحتها ، فكرّة من صوب مصر علينا ، وكرّة من صوبنا على مصر ، حتى تتعب الأزمنة بين أخذٍ وردّ . فكان عبثاً مجيء « كنعان » ، من جوار الجبل اللبنانيّ ، ووادي مصر أغبر ، وماء النيل هَدْر ، فيمسح بالخضرة ها هنا ، على كل فجٍّ

عميق . وكان عبثاً أن يقطع « توتمس » الينا ، حتى يبلغ ضفاف الفرات ، ويكاد يشرف على صفرة آسيا ، كما كان من العبث أن يقطع « سلاتيس » اليكم ، حتى يبلغ ضفاف النيل ، ويكاد يشرف على سواد افريقيا . بل كان من العبث ، فوق ذلك ، أن نتلاقى على الملعب : فرعونيَّة من جانب ، وفينيقيَّة من آخر ، نمدُّكم بالحرف واليد والشراع ، وتمدُّوننا بالخاطرة والصنع والوسق ، فتدقُّ البشائر ، في الدنيا ، باول العهد بالعلم والصناعة والتجارة .

ولا تقف المحاولة عند ربط صعيد بصعيد ، وعلم بعلم ، ومصلحة بمصلحة . بل جاوز الامر الى الديانة . فاذا الآله اللبنانيُّ « ادونيس » تحت القناطر ، في « اسوان » . واذا الآله المصريُّ « اوزيريس » ، فوق المذابح في لبنان . فألَّف الأوَّل ، في العصبية الدينية ، زرقة السماء المصرية ، على خضرة الجبل اللبنانيِّ ، كما جمع الآخر أمواج « أفقا » الى أزباد النيل . ولكن الوحدة ، في التيجان والرايات واجناس

القبائل ، قد لبثت على ذلك ، كلّه ، غير مستطاعة ، حتى اذا دار بنا الفلك ، بعد مليٍّ من الدهر ، وطلعت علينا امم الفتوح ، واحدةً واحدةً ، من الاشوريين الى الرومان ، خفتت على هذا الشاطئ المشرقيّ صيحة الوحدة ...

ثمّ انقلب أمر الدنيا . ثم جآء الإنجيل . فنوّرت هاتيك الجهات ، على مقربة من لبنان . ثم نوّد لبنان بالسبب الجديد . وما هي حتى جآءكم « مرقس » يكرز . فكأنما عدنا الى المحاولة . ويلمع في الايام ، بعد ذلك ، ضيآء من صوب « البحر الأحمر » ، فتلألئ مكة ، وتغرق بلاد العرب في اللألآء القرشيّ . فاذا القضية لقومية ، فوق كونها لديانة . فتنقّل شعاع القرآن في مشرق المتوسط على الدروب الباقية من ذلك الغرض القديم . وشرعت الرايات المحمديّة تخفق في دمشق ، على خطوتين من جبل اللبنانيّين . فأقبلنا ، في الزمن « الامويّ » ، نعبّ من « كتاب العرب » ، ونذير ألسننا في الفصاحة ، كما اقبلتم ، على يد « ابن مروان » ،

تتلقّون عقيدة الكتاب الجديد ، وتتلقنون لسانها ، فكان أن جمعت رابطة الفم بين هذا « الوادي » ، وذلك « الجبل » ، بعد ان جُمعا مرّاتٍ ، في المحاولة ، على المصلحة والعلم والديانة ، وعلى دفع الفتح ، وتحمّل الامم الغريبة . ولكن تلك الرابطة ، التي تضمّ الفم الى الفم ، كانت اشدّ الروابط . فتلاقينا ، معاً ، على ملعب « المتوسط » كرّةً أخرى . اما الغرض القديم فانه ، في نقلة الزمن ، كان قد تحوّل من نحو الى نحو ، بل انتقل من جنس ، في الجمعة المشرقية ، الى جنس . فضجّ الكون بالعرب ، ورقصت فصاحتهم على « شنيل » الأندلس ، كما رقصت على « نيل » الكنانة . وغدوا وراحوا على الممالك ، حتى لقد تصايحوا بالضّاد على ابواب فرنسة !

وتسكن العروبة ، بعد الدّور العظيم ، وتجيء العثمانيّة ، تملأ الملعب . فنعتليه ، ومصر ، وتتعاقب فصول ، في الرواية التركيّة الطويلة ، وتختلف وجوه ، وكانت مغارب الشمس

قد أضاءت ، وطفقت مشارقها تعتّم ، فيرجُ المدفع في « عكا » ، ويقطع على « بونابرت » طريق « الهند » ، ويردُ يد الإسكندر الثاني عن تغيير خارطة العالم .

فيا صاحب الجلالة :

في تلك اللَّفتة ، من التأريخ ، جاء جدُّك ... وقد كان من الاتفاق أن يولد بونابرت ، في « اجاكسيو » ، خارج فرنسة ، في العام الذي وُلد فيه محمد عليّ ، في « قونية » ، خارج مصر . فلما غلغلت الشمس الفرنسية ، في جوف « البركان المنطفئ » ، ورآء الأوقيانوس ، وأخذت الشمس المصرية تتعالى في سموات التأريخ ـ وكأنما انوارها تتفلّت من وحشات ذلك الغروب البعيد ! ـ كان من الاتفاق ، ايضاً ، أن ينهض عرش عصاميٌّ ، في الشرق ، حيث يهوي ، في الغرب ، عرش عصاميٌّ . فيتربّع محمد علي في مصر ، ويعود الشاطئ المشرقيُّ ، على يديه ، الى المحاولة . وانت تدري أن كرة الارض قد صغُر حجمها ، في عيون اساتذة

الطمع ، منذما قامت اوروبة على قدميها ، واصبح قيد الشبر ، من أرضٍ على خليج ، يحتله فاتح ، في الأعصر الحديثة ، بمثابة نصف قارّة يخوضه ، في الأعصر القديمة ، فاتح مثله . فلم يخرج محمد علي على قاعدة الأساتذة ! ولكن قيد شبره كان كبيراً ... فصهلت خيل « طوسون » ، و « ابراهيم » ، على سيف البحر الأحمر الشرقيّ ، وفي صحراوات الحجاز ، ومشارف نجد . ولوّحت أعرافها تحت « اسماعيل » ، على البحر الأزرق . وخطرت عمارة « ابراهيم » بين عيني الجزائر « اليونانيّة » ، ثم طلعت علينا أعلامه ، من « العريش » . فقطعت من يافا العربيّة الى « قونية » التركيّة ، خلف طودوس ، وكادت تطلّ على خليج البوسفور .

اماً لبنان فانه أقبل على المحاول المصريّ الكبير ، في اجابة من النفس ، اذ الملعب المشرقيّ لنا فيه سابقة الخطوات . فلا عجب أن تصبح يد « بشير » في يد « محمد عليّ » — وكان سيّد الجبل ، قد نفضها ، قبل ، من نابوليون

نفسه ، عند أسوار عكا ! ... ثم تُنسخ ، في المحاولة الجديدة ، صورة اختها ، تلك . فيرتبط الجبل اللبناني بالوادي المصري في العلم ، بعد أن ارتبط به في الحدّ والمصلحة واللسان ، وفي دين ابن مروان ، ودين مرقس . فأظلّنا « القصر العيني » معاً ، وجمعتنا مطبعة بولاق على الممتعات في الفلك ، والزراعة ، والهندسة ، والجغرافية .

وكما كانت المحاولة ، في الأمس العتيق ، تساجلاً بين نصرة من هنا ، ونصرة من هناك ، كذلك كان الأمر ، في أعقاب القرن الماضي ، يوم أصبح العلْم العربي لا يطلع له قمر الاَّ من ارضنا . فبعثنا بالممتعات في الأدب ، والفنّ ، والتأريخ ، واللُّغة . وجاء الردُّ بعد الأخذ ، وصحَّت المقابلة في التأريخ . واذا كانت رياح العربيَّة تهبُّ اليوم من مصر ، ومن عندنا ، في آنٍ معاً ، حتى ليكاد يختلط الطِّيْب ، فنتقاتل على نخر الشيوع ، فما هي الاَّ من أهبة ، يأخذها التأريخ ، لتدوين هذا النسق الجديد من المحاولة ، التي لم

ينقطع خيطها ، والحمد لله .

فيا صاحب الجلالة :

شرفاً لعرشك ، فهو كرسيُّ النيل . وقد ظلَّل نصف الحضارة البشرية . وتيهاً لمطرفك ، فهو ثوب محمد عليّ ، وقد فيَّأ نصف الحضارة العربية . فشاطر عرشك في محاولة الشرق القديمة ، وساهم مطرفك في المحاولة الحديثة . فاذا تسلَّمت ، بكفيَّك الغضَّتين ، وديعة الماضي الباهظة ، فلا خوف عليها ، وأبيك ، يا « ابن فؤاد » ! وانَّ لبنان ، الذي شرَّفني بالوقوف بين يديك ، فوق تشرُّفي بالكلام باسمه ، لا يبرح على العهد : فدارنا الشرق ، وأهلنا العرب ، ولساننا الضَّاد ، نشمخ به في الافلاك . . .

ويا صاحب الجلالة :

مُقبلٌ انت — يا ربيع « الوادي » — على سنَّة الثمر ، غبَّ الزَّهر . فتصبح المثال العالي ، لجيل الشرق الطالع ، في مباكرة ذلك النعيم الاجتماعيّ ، الذي يأنس له العقل ،

والدين ، ويحمد « واديك » طيّب الموسم ، وينظر لبنان الى البركة ، بعين الصديق ـ اذا شآء الله .

فيصل

« في تأبين الملك فيصل بن الحسين » .

بين إخوة الفجيعة ، في مناحة العرب ، مكان . فنغشى مزدحم الهول ، بين شقّ الجيوب ، وشقّ القلوب . ونهوي على الجوانب السود ، من عرش فيصل ، بدمعة لبنانيَّة ، تنزل سكبة حرَّى !

ثمَّ يُرمى الينا بالعيون ، في المأتم . في مأتم واحد العرب ، أبي الوحدة الكبرى ، من حدود مطلع الشمس ، ورآء الصحرآء العربيَّة ، حتى ملاعب الموج ، من الأبيض المتوسِّط . حدود مشية الشمس ، وهي تنتقل من صبح الى ضحى . وتتقلَّب على سبحات الشروق ، من ضحو الى ضحو !

فوالله انَّا نرانا في مكاننا ، حيث يجب ان نجلس . فهذا الجبل ، العربيُّ ، لبنان ، عدوُّ « الوحدة الصغرى » ، حبيب

« الوحدة الكبرى » ، لأجدر الإخوة الباكين بالمناحة .
أفليس فيصل خير من عرف كيف تتلاقى العرب على الغرض الصحيح ، وتلتفُّ الالسنة على « امِّ الكتاب » ، ودم العمومة ؟ أفليس هو خير من يُشكى اليه مناً ، ويُشكى اليه منهم ، يوم تتجاذب حبل الاغلبيَّة : طرف « لابن عبد الله » ، وطرف « لابن مريم » !! حتى اذا كاد ينقطع الحبل ، بين المتشادّين ، تدارك فيصل العرب بحكمة من عنده . فيسكن الحبل المضطرب ، وتقرُّ المشادَّة . وهكذا كان فيصل نعمة الله في اختلاف الريح ، وانفلات الخناصر . يصبر علينا ، وعليهم ، وعلى الايام ، الى أن سقط شهيد الصبر الجميل ، يقطر الدم المشهد من جوانب نفسه . فامَّحت ، منذ عشرة ايام ، نعمة الله ! وأصبحنا لا ندري من يستطيع أن ينبري لحبل العرب ، هذا . فضلاً عن انَّ فيصلاً كان يعلم انَّ الجبل اللبنانيَّ منابت رماح عربيَّة ، قبالة « المتوسط » . اذا انبسطت ، في الايام ، وحدة العرب ، على السهول

والجبال ، فانَّ الرِّماح اللبنانية طويلة ، بحول الله . يُشكُّ بها أباعد الغرض . فتنفذ الى اوروبة ، الى اميركة ، الى افريقية ، الى آخر أرض الله . . .

وكان فيصل ، رحمه الله ، يدفع عن جبلنا ، يوم يضطرب الجبل ، بثقافتنا ! فيشيد بتقدُّمنا على سائر الاخوة ، في حضارة مثلى ، ومجتمع معلًّى . فمن الحقِّ علينا ، بل من الحقِّ لنا ، أن ننزل ، اليوم ، في المناحة ، محلا مقدَّماً ، نلوي منه على فيصل ، و نبكي قدر مكاننا في عينه ، ومكاننا في أمم العرب !

فيا فيصل : بين مشارف الشام ، حول نعشك ، وقباب بيت المقدس ، وأمواج الفراتين ، وخيم الفلوات ، من التهائم ، والصحارى ، ومهادل النيل ، مصبًّا وشطًّا ، الى بقيَّة أهل المأتم ، يتهادى جبل اللبنانيِّين ، الأخضر ، فيبكي ، بلغة جدِّك ، تاجك الهاوي ، وصولجانك المطروح . ويا لك من ميت يجمع عليه الدمع ، ولطم الخدود ، في حين

ازورار العيون ، وتفرُّق الأيدي !

. . .

منذ ١٣٥٢ عاماً هبَّت على الصحراء الجاهليَّة ريح من مكَّة . فندي الرمل ، واهتزّ الشجر ، في واحات البيد . ثم اطلّ على النهار الجديد رايات تخفق ، عند خطوط الآفاق ، من هنالك . فزلزلت الجهات الأربع ، من تحت الجاهلية ، وتهافتت الأصنام الى الحضيض . فتح لجدٍّ فيصل ، باسم السيف ، والبلاغة ، لا يرحم في الخؤولة والعمومة احداً ، الاَّ من رحم نفسه ، وآمن بالفتح ، والاَّ الذين هم « أقرب الناس مودَّة للَّذين آمنوا » ، الاَّ « الذين قالوا انَّا نصارى » . فسقطت الجاهليَّة ، وقام الإسلام الى جانب المسيحيَّة ، في العرب . جناحان « للجزيرة » : من هنا انجيل ، ومن هنا قرآن ، نهضت بهما الى الحضارة . فتعانقت السيوف ، من قريش ، والدّروع ، من غسَّان . وانفرجت الأجواء ، بين يدي العرب ، على دروب النجوم . تحت كلّ كوكب ، في

الدنيا ، كوكبة منهم ، وفتح ، وعمران ...

الاَّ ان جدَّ فيصل — صلَّى العرب عليه وسلَّموا — لم يكن ، في القوم ، الاَّ رسول ديانة جديدة ، يمتحون منها لقوميَّتهم بمقدار . فلحقته اغلبيَّة ، وتأخرت عنه أقلِّيَّة . على ان الجميع سواء في الافتتان : بهرهم « كتاب » ، كلُّ حرف منه شعشعة ، فعينك فيه كعينك في اللألآء !! و « حديث » يتساقط على القلب ، ويكرُّ هنيئاً الى الوجدان . ورسول يتيم ، امِّيّ ، يكاد يؤثر اليتم ، لخلقه ، والأمِّيَّة لبلاغته !

فكان أن اصبح جناح ، من جناحي العرب ، عالياً على أخيه . وكان أن ذهبت دنيا ، وجاءت دنيا . فوقع جناح اسلاميّ في ناحية ، وجناح نصرانيّ في أخرى . لا سبيل الى جمعهما ، في الجوِّ المدلهمّ ، والرياح المختلفة . أيام عفا عنها الله ! أُطفئت السموات ، من فوقنا ، وطُمس على الطُرق . فخفتت ضجَّة العرب ألف سنة ، على التقريب .

وهكذا ترى انه كان لا بدَّ للعرب من رسول قوميّ ،

بعد الرسول الدينيّ ، الذي مهد الطبائع ، وصقل الأذهان ، يجمع الجناحين باسم القوميَّة ، وباسم العربيَّة . فتنهض أمَّة ، لا دين ، ويتقدَّم زعيم ، لا نبيّ !

ويشآء تأريخ العرب ، مرَّة أُخرى ، ان يدوَّن فيه ، لمكَّة ، سطرٌ أطول من شعاع الشمس ، وأكرم — بل لقريش ، بل لهاشم ، بل لبيت الحسين . ففي عام ١٩١٩ ، أي بعد تراكب ثلاثة عشر قرناً ، تهبُّ من الصحرآء ريح جديدة ، يعقبها خفق أعلام ، وقرع سيوف . فتتحرَّك مواطن العرب ، في كلّ فجّ ، للسواد الطالع من آفاق « الجزيرة » . ثم تقرب الرايات ، لوناً فلوناً ، فتتهلَّل امَّة ، تحت التراب التركيّ ، تنفضه ريح ، من صحرآء مكة ، على يد ابن محمد !

ثلاثة عشر قرناً مرَّت على العرب في مثل النعاس المتوهَّم . فاسترخت الأمة — لا راية لها ، ولا وطن ، ولا زعيم . اللَّهمَّ الا شباباً ، من عندنا ، ومن دمشق ، رفعوا

اصواتهم في باريس ، ووادي النيل ، ومدّوا اصابعهم الى البوسفور ، فخُنقوا على المشانق . وكان الاجنبيّون قد يقظوا ، حيث انطرح جناحا العرب في الليـل التركيّ ، الأسود . وناهيك من احلام زيّنوها للغفاة ، واضغاث حملوها لهم ، في استرسال الكرى . فوالله حتى الرّيش ، في جناحي ذلك النسر النائم ، قد تحوّل لونه ، وحتى الخوافي قد نكرتها القوادم !

فلما اطلّت رايات فيصل ، على المدائن والثغور ، تقطع الصحراوات الينا ، من مكة ، حيث لا يخضرّ نبت ، ولا يلمع ماء . حسبوا الرايات لمحمد ، والخيل براقيّة ، في فتح جديد . وهالهم — على فرض الأمر غير ذلك ! — أن تُعقد الألويـة للصحرآء ، في هذا القرن العشرين ، على المدن ، وشطئآن البحار . . .

واظلّت عباءة فيصل عرش أُميّة ، على بردى ، أشهراً ، كان فيها الأمر سجالاً ، بين الزعامة القوميّة ، والزعامة

الدينيَّة . حال يقتضيها سياق الزّمن - إذ الدهماء كانت لاتبرح على أعقاب الغفوة ! وأضفْ انَّ السياسة ، يومئذٍ ، كانت تفيء الى الجامع والكنيسة ، ويتراشق اهلها « بآية » و « إصحاح » ...

أماً ابن محمد فانه كان ، من ورآء حجاب الملك ، يمسح عينيه بأطراف عباءته ... بكى فتحاً عربيًّا ، على اسم اللغة والجنس ، قلبته الأيام لدين وملَّة ، وملكاً عربيًّا ، حوَّلته الى شبه خلافة . فاعجب لابن محمد ، وقد ترعرع ما بين البيت المسطَّر ، وزمزم ، واشتدَّ عوده على مهابط «الرسالة» ، في تلال مكَّة ، كيف أرادها للقوميَّة ، وأرادتها الايام للديانة ! بل اعجب له ، وقد استحقر عباءته ، المنسوجة في شمس الصحرآء ، أن يلوِّح بها عرض الشوارع ، تحت شرفات القصور ، كيف هو يغدو ذلك المتحضِّر العظيم ، ذا العقيدة ، والطلاب ، في زحمة « الردنكوت » ، التي

لا تدين بقوميَّة ، ولا تتحرَّك لدأب رفيع !

وجهد فيصل ، في وضع حجاز ، بين رسالته ، ورسالة جده ، مستطاعه . الاَّ ان بردى كان يصخب ، وتضجُّ منعطفات الغوطـة . وكان يصخب البحر ، من لبنان ، والجبل . قيامة قائمة ، فلا سميع ، ولا مجيب ، حتى قصف المدفع في ميسلون ، واختلط السيف العربيّ ، الأحدب ، « بالمترليوز » ، ذي الطلقة المخمَّسة ، فهوى العرش .

وما هي حتى استردَّ الفاتح العربيّ جأشه ، وجرت مقادير باليُمن ، على حساب الانكليز . فأطلَّت « سدارة » فيصل ، من فوق الفراتين ، تستدعي العرب ، من قرب ، ومن بعد ، واعتبرت بغـداد بواحدة دمشق ، وصُرفت المقاليد ، جميعاً ، الى يد « ابي غازي » ، وهو الذي لبث ينظر الى « الفيحآء » ، من بعيد ، بعيني ابي عبدالله ، صاحب غرناطة !

ولقد ظلَّ ابن محمد في عرش العرب ، في زعامة العرب ،

يعمل للقوميَّة ، وللعربيَّة ، حتى أهوى ، امس ، من العرش الى الجنَّة . . .

. . .

رسالتان ، في أرض العرب ، كريمتان : واحدة لابن عبد الله ، اسمها الاسلام ، وواحدة لابن الحسين ، اسمها العروبة . فمن آمن بالأُولى ، وجب عليه الايمان بالثانية . ومن آمن بالثانية ، فهو حلٌّ من أختها — وتربة فيصل . . . لكم دينكم ولي دين !

فيا غازي ، يا ابن فيصل : هذه رسالة أبيك ، لايزال عليها طريئاً دمه ! فأدِّها للعرب ، كما أرادها : قوميَّة ، عربيَّة ، خالصة ، يهتف باسمك ، في الخافقين ، سبعون مليوناً من الخلائق !

ويا غازي : عليك تحية الملك ، من ألف راية عربيَّة ، في ألف مدينة عربيَّة ، تلوِّح بها لك الضمائر ! وعليك تحيَّة الملك ، من راية في الأرز ، خضراء كالأمل بك ، شامخة

كأنفك ، مثقلة الحواشي كهمّك . . . فاذا رحت تنسج للعرب راية واحدة ، تخفق ، غداً ، على الشرق ، من كشبان البيد الى أثباج الشطوط ، فمنّا الخضرة - وحقّ أبيك . . .

ذكرى الملك

« في سنة ١٩٣٥ »

لمرور ثلاثمائة سنة ، على وفاة الأمير
فخر الدين المعني الثاني .

سقى الغيث ، من مشارف كسروان ، تراب الخازنيِّ القديم ، أبي صقر ، ابراهيم بن سركيس ، الذي ما برح تأريخ القضية اللبنانيَّة يتأرَّج على ذكره . فانَّ من عنده ، من « برج الدَّرج » ، على « النهر » ، طلع الكوكب اللبنانيُّ ، وطفق يتنقَّل . وهكذا يشاء المجد أن يجمع ، في النهضة ، جناحي الجبل ! فيكون للجنوب يد على بناية الوطن ، وتكون يد للشمال . واحدة تنوخية سلفت ، في يوم العمار الأوَّل ، وواحدة خازنية تلت ، في يوم العمار الآخر !

كانت الدنيا على قلق ، يوم اطلَّت رايات معن على الشوف فالكرج تتكسَّر سيوفهم عند تفليس ، والترك

تتساقط ، في انطاكية ، على صاحب اوآء حلب (بولدوين) ، وحلب تزخر بفتنة ابن ارتق ، ويافا في حصار المصريّين ، وصيدا في الرّوع ، وكذلك صور ، ودمشق ، وطرابلس ، فانّ البندقيّة تقذف الشراع ، تلو الشراع ، الى الشاطىء الشرقيّ من المتوسّط .

ولقد تلاقت رايات معن الايوبيّ ، ورايات بحتر التنوخيّ ، في غفلة الدنيا ، هذه ، يوم كان الشوف خالياً ، يصفر . فعمرته العشائر من حوران ، ودمشق ، وحلب ، وسهول البقاع ، تنزل على الأمرآء ، من ربيعة ، سادة البقاع ، ومن ابناء ماء السماء اللّخميّ ، سادة الساحل . فرُفعت البيوت ، في الوطن الجديد ، وغُرس الشجر ، ورُسمت الدّروب ، من السهل البقاعيّ الى صحرآء الشويفات .

وكانت معاول الحرّاث تهوي ، في صوت خافت ، وتسقط مطارق البناة على الحجر ، فلا ترنّ ، مخافة أن تسمع التيجان ، في انطاكية ، ودمشق ، وبيت المقدس . . . وما

هي حتى آنس اللبنانيُّون الأوَّلون ، في أطراف الشوف الغربيَّة ، وفي سهول البقاع ، أمناً ، واستقلالاً ، فتنادوا على بيعة معن ، يقيمونه ملكاً بعمامة – على عادة العرب – وتتأخَّر عن جواده ، للإجلال والتكرمة ، خيول السادات ، من بهرآء ، وتغلب ، وتنوخ ، ففعلوا . وملك الامير اللبنانيُّ الأول ، ثلاثين عاماً ، ملك المنشئين : يرفع ، في اثنائها ، الامَّة ، والحصون ، والشجر ، في وقتٍ معاً ! حتى لقد كانت خريطة الوطن خضرآء من جانب ، حمرآء من آخر ... تدفق المواسم في صوب ، وتدفق الدماء في صوب ، فما بخل لبنان في الاثنتين ! كان معن بقاعيَّ الهجرة ، هواه الحقل الممرع ، والشجر المائج ، على الصهاريج ، فمسح على الوطن بالخضرة ! وكان ايوبيَّ العرق ، عدنانيًّا ، تُقطع سرَّته بالسيف ، فمسح بالسيف على الوطن !

كذلك جُمعت سهول البقاع ، وجبال الشوف ، وسواحل بيروت ، على عقدة اللوآء الواحد ، بعد أن نزلت

المعنيَّة ، من البقاع ، على التنوخيَّة ، في الشوف . ولقد كان من المحتوم أن يتلاقى السهل والجبل ، في عمار الوطن ، فتزخر المروج بالرِّزق ، وتجيش الجبال بالجند . لذلك بايع التنوخيُّ صاحبه المعنيَّ موضع التقدُّم ، في الأمة ، دون أن يستكبر ، اذ الغرض أن يقوم ، تحت الشمس ، هذا الوطن الصغير !

ولسوف يذكر اللبنانيُّون ، في باب الحرمات اللاَّزمة ، يداً لبحتر بن زهر الدين ، تنوخيَّة ! كانت هي السمحة ، البيضآء ، على وحدة البلاد ، الأُولى ! فان بحتراً هو مرسل البناة ، والمعاول ، والمطارق ، الى معن ، يوم بنيان الشوف ، وهو ، هو ، مبايع معناً ، وعاقد لوآءه ، على السهل ، وعلى الجبل ، يوم بنيان الوطن . . .

ثم يغيم ذلك الجوُّ الصاحي ، من تأريخ اللبنانيَّة الأُولى ، ويتعاقب على الامارة — بين بعقلين ، ودير القمر — ايام بالنحس ، وبالسعد ، ويغدو الجبل ، وهو يعجُّ بالاحزاب ، بين قيس ويمن ، في الجنوب ، وبالسيوف ،

بين بني العسّاف وبني سيفا، في الشمال، ويكون الأمر قد انتهى الى يد قرقماس، فيموت ابو نخرالدين حسرة وانفة، في مغارة تيرون، تحت جزّين، بعد أن خانته الحظوظ، في مرج عرجموش، عند الوالي العثمانيّ، ابراهيم باشا. فخفتت ضجّة قيس، بعد قرقماس الشهيد، الذي ترك ابنيه نخرالدين، ويونس، في العاصفة اليمنيّة القاسية، فرخين بلا وكر!

ولكنّ الله، سبحانه، قد هيّأ، يومئذٍ، لهذا الوطن الصغير، نعمة تغمره من كلّ جانب. فانبرى أبو صقر الخازن للقدر المهيّإ. وأبو صقر قيسيّ الهوى، خازنيّ الوفآء. فاحتضن فرخي القيسيّة، بين برج الدّرج، وبلُونة، ستّة اعوام، حتى اذا بلغ فخر الدين اشدّه، وانفرجت الدنيا لجناحيه، أطلقه ابو صقر، باسم الله، والوطن، والامارة، من كسروان الى الشوف — من المخبإ الى العرش!

وهكذا يذكر اللبنانيّون، بعد يد ابن زهر الدين،

في عنق القضيَّة ، يد ابي صقر . تُجمع ، في الأُولى ، القبائل المحمدية الى اللِّواء اللبنانيّ ، وتجمع ، في الأُخرى ، القبائل المسيحية ، ويغدو الجبل للجميع !

ومن نعم الله ، على فخر الدين ، انَّ بجدِّه ، معن ، كُتب لنا ، على يد بحتر ، آية المبايعة التنوخيَّة ، وانَّ به كُتب لنا ، على يد ابي صقر ، آية الوفاء الخازنيّ ، فقامت اللبنانيَّة بعد الأُولى ، وقام العرش بعد الثانية .

ولا يقف سطر المجد ، في تأريخ فخر الدين ، ها هنا ، ولا تنقطع فكرة الاتِّصال بين البناة ، في عمار الوطن الصغير . بل يعتلي فخر الدين العرش ، ويملأُ الدنيا . . فتصهل خيله من حلب الى بيت المقدس ، ويختال أسطوله بالشِّراع ، والسفين ، من هذا الشاطئ الشرقيّ ، في المتوسط ، الى الشاطئ الغربيّ ، منه ، قبالة اوروبة الجنوبيَّة . ملْك ممنَّع ، واستقلال ، وحروب عادلة ، وسفراء الى الممالك ، وعهود تُعقد . وناهيك بمعاهدينا ، يومئذٍ : فواحد في

باريس ، (واسمه لويس الثالث عشر !) ، وآخر في رومة ، (واسمه البابا بولس الخامس !) ، وثالث في توسكانة ، (واسمه فرديناندو الأوّل !) . . .

اماً الذي في اسطنبول — وهو الخليفة — فانَّ فخر الدين ، المحمديّ ، ينفض منه اليد ، ويجرُّ على جيشه جيش لبنان ، عند أبواب طرابلس ، وفي غوطة دمشق ، وفلوات حوران . اذ الأمر في القضيَّة اللبنانيَّة كان أمر وطن ، لا أمر دين ، واذ المطلب كان لدولة ، واستقلال — أي على دأب معن ، وبحتر ، وأبي صقر ، واخوانهم !

ولقد ظلَّت شمس فخر الدين تشعشع ، على طريق اللبنانيّين ، عاليةً ، حتى أدركها المغيب ، فوق شطآن فلورنسة ، وانطفأت في مغارة جزّين ، ودخلت عتمة الأبد ، في البوسفور . . فكمل بذلك ، في تأريخ الاستقلال ، سطر المجد ، على اسم اللبنانيّ المحمديّ ، الذي مدَّ يده الى الملوك ، الممسوحة الجباه بزيت الكنيسة ، ونفضها من

الخليفة، صاحب « الخرقة النبويَّة »، صوناً، منه، لاستقلال الجبل ! هو دين، في ذمة القضيَّة، للملك اللبنانيِّ المحمديِّ، لا يلبث الملك اللبنانيُّ النصرانيُّ حتى يغبَّه، فيغدو كتاب القضيَّة بفخر الدين، وبشير، كتاب التضحية من أجل الاستقلال، بعد أن كان بيحتر، وأبي صقر، كتاب التآخي من أجل الوحدة ! وهكذا يتلاقى، في نقلة الزمن، جنوب الجبل وشماله، ومحمديُّه ومسيحيُّه، وتخفق الراية البيضاء، المخطَّطة بأخضر، فوق « العمائم البيض »، و « العمائم الحمر ». فانه بعد أن يدور الفلك بالدولة المعنيَّة، ويتَّصل الشعاع الشهابيُّ بالعرش، تتهيَّأ مطالع الشوف لضياء، يطلّ من فوق دير القمر، على اسم الكوكب العظيم، أبي الشرف القوميِّ، بشير بن قاسم بن عمر، وينوِّر جبل اللبنانيِّين، كلُّه، بالشهاب... فركب بشير العرش. وكانت الدولة التركيَّة قد القت عينها الى امَّة، في لبنان، تحثُّ الخطى في طريق الاستقلال. فطفق بشير

يعمل للقضيَّة ، بين لين وشدَّة ، وأخذ وإعطاء . فيوماً في دفع الغارة الوهابيَّة عن دمشق ، ويوماً في دفع الغارة اليونانيَّة عن بيروت ، واصفْ ايام سانور ، وسهل البقاع ، وجبَّة بشرِّي . سياسة يقتضيها الأمر اللبنانيُّ ، يومئذٍ ، والجبل حشوه دسائس ، وصاحب عكّا ذو عدَّة وعديد ، هما فوق عدَّتنا وعديدنا ، وحكومة اسطنبول تنظر ، بالعين الحمراء ، الينا ، منذما جرى الشراع الأَرزيُّ بين صيدا وتوسكانة . فكانت القضية على يد الملك الشهابيِّ سجالاً : تشيل منها كفَّة ، وتحطُّ كفَّة — سجال بين زمن عنيد ، وملك عنيد ...

ولقد استطاع بشير ، في عصف تلك الرياح ، أن يوفِّي حقَّ الحضارة ! فبسط الأمن على الجبال ، والسهول ، وأنبت التُّوت الأخضر ، ورفع قصور الدَّولة ، وقلاعها ، وشقَّ للعلم طريق وادي النيل ، بين بيت الدِّين و « القصر العينيِّ » ، يفد على هذه شعر آؤنا ، ويفد على تلك طلبة العلم الطبيِّ منَّا .

وظلَّ الشهابيُّ على بناء الحضارة اللبنانيَّة خمسين عاماً ، يرفع الحجارة بالسيف ، ويرفع العقول بالسيف ، ايضاً — فانَّ أعداءنا كانوا يكيدون للقضيَّة ، حتى حول « قاعة العمود » ، ويرشقونها ، من ضوله بغجه ، بالَّذين هم من لحمنا ودمنا !

ولقد وفى بشير لفخر الدين ما كان له من دين ، في ذمَّة القضيَّة ، وسجَّل المجد ، في كتابها ، واحدة مسيحيَّة ، بواحدة محمديَّة ، ليصبح كتاب الاستقلال كتاب الملكين ، كما قد كان كتاب الوحدة ، بالتنوخيِّ والخازنيِّ ، كتاب العنصرين ! إذ انه بعدما فتح بونابرت نصف الدنيا ، وجاءنا ، يومئذٍ ، يفتح النِّصف الآخر ، وكان ما كان ، ورآه أسوار عكَّا — وخاف بشير ، على الجبل ، من الفاتح الغريب ، نفض يده منه — وقد ترقق له بونابرت مرَّتين ، ثنتين . . .

اماَّ تلك اليد النصرانيَّة ، اللبنانيَّة ، التي ارتدَّت عن مصافحة الفاتح النصرانيِّ الاوروبيِّ ، ، ذي الجبروت ،

والجحافل ، والرّايات المزرّرة ، وذلك صوناً للقضيّة ، ودفاعاً عنها ، فهي ، هي ، التي بُسطت للأمير المصريّ ، المسلم ، الذي كان لا يبرح حظّه في ناحية الظنّ ، يوم حسب الشهابي انّ في بسطها صون الجبل ، وحفظ الاستقلال . فمشى جيش بشير على العثمانيّين ، في كسروان ، وحوران ، الى جانب جيش ابن محمد عليّ ، دون ان يلتفت الامير اللبنانيّ النصرانيّ الى ممالك نصرانيّة ، اربع ، تشدّ أزر الخليفة ، عبد المجيد على الأمير المصريّ المنفرد ، محمد عليّ ... فقد كان الغرض ، في قضية لبنان ، ان يُغتنم الخير من ايّ صوب يجيء . فوفى بشير ، بذلك ، لفخر الدين ، دين الماضي ، كأشرف ما يقع الوفاء !

ولكنّ القدر الأسود كان واقفاً بالمرصاد ، عند ميناء صيدا ، للشمس الشهابيّة . فتراجعت خيل ابرهيم على أعقابها ، وظفر سليم العثمانيّ ، بحليف المصريّ ، في عقر داره ، وذلك بعد خيانة « شير الباطيّة » ، في ضاحية جونية .

فهوت شمس بشير من صيدا الى مالطة ، كما قد هوت ، من قبل ، شمس فخر الدين من صيدا الى فلورنسة ، وتقابل في تأريخ القضية صفحتان ، عريضتان : طويت الأُولى على ضفاف البوسفور ، وعلى ضفاف البوسفور ، ايضاً ، طُويت الثانية !

. . .

ففي هذا اليوم العظيم ، الذي يُقام على ذكرى الملك الجبليّ ، فخر الدين الثاني ، تتلفّت امّة ، ها هنا ، الى الماضي ، فتجد انّ بأبي الرجل قام وطنها ، وانّ على حسابه تألّفت أجزاؤها ، ومن أجل دَينه ، في ذمّة قضيّتها ، ترك النصرانيّ أخاه النصرانيّ ، بل ترك عزّة العرش الى ذلّة المنفى !

فشرفاً لفخر الدين ، في تأريخ الوطن ! إنه على آساس آبائه رفع جدار القضيّة ، وبأيدي خلفائه مكّنه على نسق الاستقلال . وعفا الله عن أحلام بعرش ، وبملك عرض الشرق ، ذهبت كلذّة الكرى ، وهي ، في هذا اللّيل

اللبنانيّ، الذي لاحسّ فيه، ولا بارقة، يعاودنا تذكارها الحبيب، ويطرق خواطرنا...

سعود في لبنان

كُتب في العدد الخاص، من جريدة «اليوم»، بزيارة صاحب الجلالة الملك سعود للبنان – وكان لايزال، جلالته، على ولاية العهد.

في الساعة المباركة، من يوم غدٍ، الخميس، تهبط، من السماء العالية، طيّارة فيها الأمل الكبير! فتهتزّ أرض اللبنانيّين، من الطرب والشرف، بين يدي القادم، وتلتفت ملايين العرب، من ديارهم، بين وبر ومدر، تغبط هذا البلد الأخضر، على قدوم الغيث السعوديّ...

سعود بن عبد العزيز، عاصب الشملة في موضع التاج، والعاقب، بعد «الطويل العمر»، على العرش الذي يظلّل البقعة الحبيبة، الغارقة في شميم العرار، وفي نعمة الاستقلال، ونعمة ابي سعود – فألف اهلاً بفتى الفتيان في العرب! ويا فرحتا برؤية الشملة الحرير، التي اليها تشخص التيجان،

وبرؤية السيف الأحدب ، الذي منه تحتشم المدافع !

ولا ، والله ، لا جبال الذهب ، بين العروق والقِطَع ، ولا الزُّيوت في عشرات المنابع ، ولا عشرات الألوف في الحديد ، والخيل ، والقسطل ، والطَّنك ، والطيَّارة ، هي التي تسبغ على ابن عبد العزيز هذا الوقار الجمّ . وانما يسبغه عبد العزيز ، وقيام عبد العزيز ، بحقِّ الله ، وحقِّ العرب ، ثمَّ يوسعه ، ويطيله هذا الذي يقوم به في ولاية العهد حافظه !

فلبنان ، من خليجه ، في الأبيض المتوسِّط ، الى جباله ، قبالة الصحرآء السوريَّة ، اليك ، يا ابن حامي المكَّتين ، يهرول ، على ما عنده من شعب في الدين ، وفرَق في النظر الى مصاير الدنيا . فانك انت ابن السيِّد الأوَّل ، في العرب ، والأمل الأوَّل لهم ، والمستقبل الأوَّل فيهم . وما برح وطن اللبنانيِّين ، في كلِّ نقلة من التأريخ العربيِّ ، هو صاحب الصوت في الرَّكب ، يطلع بالحدآء ، في أشهى ما تكون الفصاحة بلغة القرآن !

وأمَّا هذه الجريدة « الطِّيبيَّة » ، وهي التي لها كانت القدم السابقة ، في التوجُّه اليكم ، آل سعود ، فانها بعددها اليوم ، تصل ما لم ينقطع من هواها لكم ، وتعلُّقها بكم . وبحسبها من المجد ، يوم التباهي برجوع العود على البدء ، في الرأي ، انها لبنانيَّة ، سعوديَّة ، عربيَّة ، أبداً !

ثمَّ شكراً لها ، فانها قد هيَّأت لهذا القلم ، الرَّيان من شميم عراركم ، أن يقول ، من صميم القلب ، ما قاله ، الآن . . .

المقدمة المسيحية

هي المقدمة التي وضعها المؤلف لكتاب « نفسية الرسول العربي » ، وقد وضع له « المقدمة المحمدية » العلامة الشيخ عبد القادر المغربي .

« محمد » نغمة ، لا كلمة — لفرط ما مسحت على شفاه الخلائق ! — تأخذ بالسمع ، قبل الأخذ بالذِّهن ، وتفيد خفَّة الحروف ، وحلاوة اللَّفظات ، قبل أن تفيد العلاقة بالله ! وليس على بسيط الارض عربيٌّ لاينفتح صدره لها ، ولا ترجُّ جوانب نفسه . فمن لم تأخذه بالإسلام ، اخذته بالعروبة ، ومن لم تأخذه بالعروبة ، اخذته بالعربيَّة ! !

وفي هوى محمد — ولا حرج في التمسُّك بالقوميَّة ، والكلف باللُّغة ، كما لا حرج في الدين ... — تتلاقى ملَّتا العرب : ملَّة القرآن ، وملَّة الانجيل ، حتى كأنَّ الإسلام إسلامان : واحد بالديانة ، وواحد بالقوميَّة ، واللُّغة . او

كأنَّ العرب مسلمون جميعاً — حين يكون الاسلام هكذا :
هوىً بمحمد ، وتمسكاً بقوميَّته ، وكلفاً بلغته !

ومحمد ، لا تستطيع طائفة ، في العرب ، أن تنفرد بالتجاهي به ! فهو ، فضلاً عن كونه للخلق كلّهم ، حيث يتشبَّهون بأكرم الآدميِّين في حفظ النفس ، وحفظ الجار ، وحفظ الله ، لبالأجدر أن يكون للعرب ، كلّهم ، حيث نتشبَّه ، فوق ذلك ، بأبلغنا في الفصحى ، وأنهضنا في الجلَّى ، يوم حطَّ الكفَّة بعرب ، وشيلانها بأعجام !

وانَّ لغير المسلم ، في أرض العرب ، أن لايدين بدين «ابن عبدالله» ، وأن يخلب لبَّه ، مثلاً ، كتابٌ «لابن مريم» ، كلُّ حرف منه يقطر رفقاً ، وصليب قعدت به دنيا ، وقامت دنيا . فاماً ان يكون فينا عربيٌّ ، من لحمنا ودمنا ، ثم يغدو لا يمتُّ الى محمد بعصبيَّة ، ولا الى لغة محمد ، وقوميَّة محمد ، فهو ضيف ثقيل علينا ، غريب الوجه بين بيوتنا . . .

ولقد جعل محمد هذه الدنيا عربيَّة ، بحتاً ! فاستنزل كتاب

« الرِّسالة » بلغة قومنا ، وحاط ديانتهم بها ، بل أتى ببرهانه منها — يوم زفَّ هذا المعجز ، المخلَّد بين الحلق والحنك — ثم أدار « الحديث » ، فمسح على الاخلاق ، وكرائم العادات ، في مختلف اطوار المعايشة ، حتى في الملبس ، والمطعم ، بلون عربيّ ، لا غبار أجنبي عليه .

وانَّ حظَّ اللُّغة — بل حظَّ القوميَّة — من ديانة محمد ، لم يقف عند هذا القدر الوافر ، بل تجاوزه الى قدر أوفر ، فاذا لسان قومنا يصل بين الحياة الدنيا ، والأُخرى ، واذا هو لغة السعداء ، في ضجَّة النعيم — « العربيَّة لغة اهل الجنَّة » ...

ذلك ، والجنَّة الموعودة ، نفسها ، لم تُبسط في « الكتاب » ، ولا في « الحديث » ، الاَّ على هوى العرب ، وتنظُّر خواطرهم ، وتلهُّف اكبادهم . ففيها الشجر ، والأنهار ، والقطوف الدواني ، والارآئك الخضر ، لاشمس ، ولا زمهرير ، بل صحو دائم ، ونعيم ، وملك كبير ... الى آخر ذلك اللَّوح الرضوانيّ ، الممتع .

فجعل محمد الدنيا لقوميَّة العرب ، وجعل الأُخرى للغتهم . ثمَّ خاف ان ينشطر القوم ، من ورآء الرِّسالة ، الى فريق مؤمن بها ، وفريق مؤمن بغيرها ، فجمع بكلمته « من احبَّ العربَ فقد احبَّني » حيث المخافة من الفرقة ، ولمَّ حيث المخافة من الشَّتات ! كأنما الشَّرط ، عنده : الحبُّ للعرب ، والحدب عليهم ، والأخذ بنصرتهم ، لا الدخول في دينهم ! فاعجب لرسول ، همُّه في الأرض أمرُ الله ، وجرُّ الخلائق اليه ، من كلِّ جنس ، كيف يُعنى ، من اجل قوميَّته ، هذا العنآء ، ويبثُّ هذا البثّ !

وها انَّ اقوامنا العرب ، في الآفاق ، كلَّما أطلق المؤذِّن صوته ، بين السمآء والارض ، عند تحرُّك الصُّبح ، في العتمة ، او تنقُّل الشمس ، بين مبزغها ومغربانها ، أحسُّوا ، في تلك الصيحة ، بأنَّ « شيئاً » ، من قوميَّتهم ، يحلِّق في الجوآء ، ويغذُّ في السير ، من فجٍّ الى فجّ ... واستشعروا كبريآء العصبيَّة لديانة من عندهم ، تُدقُّ بشائرها بلغتهم ،

ويكبّر بها على اسم صاحبهم ، ويُدخل فيها من باب تاريخهم!

روى لي واحد ، من الّذين صرفوا طويلاً في باريس – وهو مسيحيٌّ من عندنا ، من بلاد الجبل ، درس الطبَّ هنالك ، وتعلّمَ من لغة الجماعة ، ومن تاريخهم ، وطرائق الأخذ والاعطاء ، عندهم ، في كلّ دقيقة من دقائق المخالطة ، اكثر مما يعرف من اشيائنا ، بكثير – قال : انه فيما هو يسير ، ذات مرّة ، في شارع « كاتر فارج » ، على مقربة من « جامع باريس » ، بعيد الخاطر عن هذه الارض اللبنانيّة ، اذا تكبيرة تنطلق من المأذنة ، وتتعالى على الجلبة الباريسيّة ، فأخذ صاحبنا بغتة حلوة ، ملأت فؤاده . قال : « فلم أتمالك أن حوّلت طريقي ، وغشيت باحة المسجد ، حيث قضيت بعض الساعة ، بين تلك القناطر والقبب ، وكأني في سربي ، في لبنان ، انظر الى منازلهم ، واصغي الى احاديثهم – على أنّ بيني وبينهم سماوات ومفازات » .

هكذا جمع محمد ، اليه ، بفضل العربيّة في رسالته ،

والعروبة في نعرته ، هذه القلوب العربيَّة ، من كل ديانة ، حتى يبيت يجد صديقنا ، ذاك ، تحت مأذنة الجامع ، في دار الغربة – وهو ابن المسيحيَّة ، كما رأيت – ما لا يجده تحت قبَّة الكنيسة ! ! ذلك حيث انَّ اللُّغة ، في باب الميول ، وترك الطَّبع على عنانه ، هي فوق الدين ، والعصبيَّة القوميَّة فوق العصبيَّة الطائفيَّة !

فمحمد ، اذنْ ، هو للعرب ، قاطبةً ، في لغة « الكتاب » ، و « الحديث » ، ونعرة الجنس ، وشدَّة الحفيظة عن كرائم العنعنات ، وفي تأريخ لفتح الممالك ، وفتح العقول ، ملأْلاءِ كرأْد الضُّحى ، واخلاق عليها سلام الله ! اماَّ المسلمون ، فليس لهم من زيادة علينا ، حيث الانتفاع به ، والأخذ عنه ، والتباهي بذكره ، الاَّ الإسلام ! وهي زيادة ، ترى المسيحيَّين من العرب – أردتُ الأقحاح منهم في النسب ، وفي الأدب – يتلافون فقدانها في « محمديَّتهم » . فهم يستزيدون اكبادهم من هوى محمد ، ويستزيدون السنتهم ،

واقلامهم، من النصرة لشأنه، حتى ليكاد يتعادل النصيبان!

لذلك تتماوج ارض العرب، اليوم، بمجد واحد العرب، وحبّه، وتتجاوب الاصداء فيه، على رمل البيد، ونبت الجبال، وعلى كلّ شاطئ وخليج، من مطلع الشمس، في الزرقة المشرقيّة، الى محطّتها في الضحى، عند حدود الصحو ... حبٌّ «لابن عبدالله»، سواء فيه ابيض واسود، ومقيم وراحل، ومسلم ونصرانيّ. واعتزازٌ «بابن عبدالله»، وهزّة اعطاف، على الأمم، باسمه!

. . .

وبعد، فبهذا الحبّ، كلّه، وهذا الاعتزاز، كلّه، يعجّ كتاب صديقنا الفيلسوف الاستاذ الرياشي، وهو الذي اقدّمه، الآن، بين يدي القرآء، ويا نعم الحبّ الذي لم يبقَ للعرب غيره، من يجمع القلوب على القوميّة، فتُحفظ لغتهم بلغته، وتُذكى نعرتهم الجنسيّة بنعرته، ويا نعم الاعتزاز به

ثمّ انّي لا ادري، أيصحّ أن أخصّ، أنا، بكتابة

هذه التَّمهيدة « المسيحيَّة » ، في الكتاب ، أم يخلق بي – ولساني « محمديٌّ » ، وهواي ، وشقُّ هذه القصبة ، التي في يدي – أن أُخصَّ بكتابة اختها « المحمديَّة » !!

ويا محمد : يميناً بديني ، دين « ابن مريم » ، وبخشبات صليبه ، انَّنا في هذا الحيِّ ، من العرب ، نتطلَّع اليك ، من شبابيك البيعة ، فعقولنا فى الإنجيل ، وعيوننا في القرآن ...

وجوه غائبة

الى صديقي كاظم الصالح .

Les vivants seront toujours et de plus en plus gouvernés nécessaire. ment par les morts.

أوغست كونت

في « الرسائل »

... وعندي ، فوق هذا ، ان الاساتذة الموتى ، الذين سلكوا السبيل قبلنا ، وخرجوا من الدنيا ، فكأنهم مضوا ليفسحوا لنا المواضع ، لمن حقهم أن يطرقوا خواطرنا ، وأن يرشفوا ، في الفاظنا ، قليلاً من الحياة ! فانهم ، رحمهم الله ، لم يبق لهم ، من سبيل الى الضياء ، الا هذه الحروف السود ، التي تضيء فيهن خواطرنا ...

هذا حبل الأبد ، هيهات أن ينقطع ! والأدب بشري (من نتاج اللحم والدم) ، فليس في استطاعة أحد أن يقطع هذا الحبل !

المؤلف

في « تحت قناطر أرسطو »

تأبين لبناني

كُتب يوم نقلت نجاليد صاحب « الهدى »
الى لبنان .

تلك النُّقطة الخضراء ، في خريطة الجغرافية الكبرى ، عند كتف الأبيض المتوسِّط ، من الشرق ، هي ، على صغرها ، وطن له أهل ، وله ضحايا تحت السماوات . . .

تأخذ كرة الجغرافية ، تقلِّبها بين كفَّيك ، فتجد انَّ اوطان الخلائق ، من كلِّ جنس ، تعجُّ بالمشتاقين منَّا الى تلك النُّقطة الصغيرة — كأنَّما الدنيا بها إبرة الشمال ، تتلفَّت اليها ، أبداً ! ثمَّ يُمثَّل لخاطرك ، وانت بين ألوان الممالك ، تأريخ البشر ، وفهرس الأزمنة ، فتجد انَّ هذه النُّقطة الصغيرة هي قبلة ، اليها تُشدُّ الرِّحال ، وتخبُّ الجيوش بالشراع ، والحديد . ثمَّ تنظر الى ضآلة ما بين هذا الجبل اللبنانيِّ ، والبحر المتوسِّط — حيث يكاد الشبر يطوي

المسافة ! – فتسأل نفسك : على ايّ شيء تزدحم الممالك ، وتتواقع الرّحال الغريبة ! ! وترى انّ هذا ، قيد الشبر ، لا يسع المشتاقين من أهله ، يوم يرجعون اليه ، فكيف به في زحمة الفتوح ، وجيوش الأُمم !

وجبل اللبنانيِّين لا تزخر على جنباته المصانع ، ولا يحفل جوفه بالمعادن . بل جملة ثروته : أفق متضاحك ، لا يغيم ، من فوقنا ، في حقول السنبل ، أيام المواسم ، وأنهار لا تبخل علينا بقطرة ماء ، في بطون الأودية ، وعطفات الدُّروب ، وربوات لا تعبس لنا ، في القيظ ، وقد أوحش الشاطئ ، وحميت الرّمال ! فكأنَّ هذا الجبل من أخيلة المتصوِّفة ، أهل الصمت والعزلة ، حين يقعدون جنبةً ، لا شيء بين يديهم الاّ الجمال ، والعبادة ، ودوران الايام ، في مهل ، أو كأنَّه من أخيلة « جمعية الأمم » ، في قصيدة السلم الكبرى ...

وإذن ، فعلى أيِّ شيء تقوم الضجّة ؟ وأيُّ شيء ،

من أشيآئنا ، تنتفع به أُمم الدَّواليب ، والعمَّال ، والنوتيَّة ؟ أفعين المآء ، المسلسلة في ثغرة الجبل — وهي تكاد لا تروي قطيع الضأن ، في عطش الظهيرة — تروي من لم يروه الأوقيانوس ، ذو الطول والعرض ؟! أم انَّ سمآء الجبل — وهي تكاد لا تسع عندلة المندليب ، في عيد الصَّحو — تنفسح لقصف المدفع ، ورجَّة الحديد ؟!

ونحن ، بازآء هذا الأبيض المتوسِّط ، على علوٍّ مئات الأذرع ، وعلى مقربة من مطلع الشمس المشرقيَّة ، بين جوٍّ زاهي الألوان ، كأنه أجنحة الديوك ، يبعث الشعرآء ، والعشَّاق ، والزَّاهدين ، وارض ذات عتق ، واسرار ، واصدآء ، كأنها كتاب « ألف ليلة وليلة » ، فنحن في جبل الخيال ، هذا ، أجدر الناس بالفلسفة ، والشعر ، وبقيَّة فنون الكلام ! نجادل الناس — في زمن « الغوَّاصة » — بأمثال الناصريِّ ، الذي وُلد في قرية بيت لحم ، قبل أن تولد « جمعية الأمم »

في مدينة جنيف ! ونحتجّ عليهم — في زمن « الرّاديو » — بأحاديث القرشيّ ، الذي هبط كتاب السحْر على كتفيه ، قبل أن يزفّ هتلر كتابه لأُوروبّة !

تلك عدّتنا في حومة الحقوق ، يوم يتقلّد كلٌّ منازل سلاحه ! تعصف النخوة ، دون الحياض ، بواحدنا ، فيتناول قلمه - إذ هو لا يستطيع أن يتناول سواه ، ممّا يقطع ، ويفري . ويظلّ يغمسه في دواته ، وفي صدره ، حتى يقع قتيلاً ، بل قلْ شهيداً - يرحمك الله ! أفلا ترى كيف نحل جسمه ، وذاب سواد عينيه ، وتقلّص فمه ، من لعوة الجوع ؟

وسيّان ، في تلك الحومة ، من مات بالنّار ، ومن مات بالقلم ! إذ انّ غرض المجد منك أن تستطيب طعم الموت ، يوم يُخاف أن يموت الوطن . . . وعلى مذبح النّخوة يستوي شهيد سقط خلف المدفع ، وشهيد سقط خلف الدّواة ! ولكنّ الحقّ هو غير ما يظنّه أهله . فهو يقع على مقدار ما تطال اليد ، لا على مقدار ما يطال اللّسان . لذلك يقال

فينا اننّا امّة خيال وكلام ، ولذلك يموت شهدآءنا عبثاً ، وتذهب قرابينهم هدراً ...

. . .

وهذا ، بعدُ ، شهيد جديد ، يرجع ، اليوم ، الى النُّقطة الخضرآء الصغيرة ، في خريطة الجغرافية . ولقد مات من أجلها ، وسقط القلم من يده ، وهو في معمعان الواقعة ، دون أن ينفعها قلامة ظفر ! مات كما استطاع أن يموت ، أي خلف الدَّواة ، لا خلف المدفع . فدمه الطَّليل ، الأحمر ، هبآء مضيَّع على مذبح الحقّ ، وهو عطر ، وطيب ، وضحيَّة سمينة على مذبح الشرف !

فأهلاً بواحد آخر ، من شهدآء المستطاع ! ولينزلْ على مثل أجنحة الدُّيوك ، من جوّنا الزَّاهي ، وعلى خضر الجنان ، وزرق الينابيع ، من ارضنا . حتى اذا أنس ، وقرَّ قراره ، بين وسوسة الماء ، وحفيف الورق ، عاد الى حلم مشرقيّ ، طويل ـ لا ينقطع ، هذه المرَّة ، الاَّ يوم ينقطع

الأبد ! - وهكذا تكون أرضنا الحسناء هي مهد الخيال ، ولحد الخيال ، في آنٍ معاً ، وتتمّ المطابقة !

. . .

امّا جبل اللبنانيّين فانه سيظلّ جبل الخيال ، هكذا ، حتى تطبق السماء على الأرض ! اذ ليس في وسع الأيدي ، ولا في وسع القلوب ، ان نزلزل جباله ، ونجتثّ شجره ، ونمسح سماءه ، ونمسك الماء في ينابيعه ، كيما نغدو بعدها في غير الخياليّين !

بل نحن نجد انه في وسع الصَّبر أن نظلّ هكذا ، حتى يصبح الناس مثلنا ! يومئذٍ يغمر الخيال الانسانيّ ، الأعظم ، كرة الأرض ، هذه ، وينفح نسيم الرَّخاء على جوانبها ، ويهبّ في وجهها طيّب الحقّ - ذلك يكون يوم تغدو « جمعيَّة الأمم » وهي ليست بذات خيال . . .

ويومئذٍ يلمع ، خلل العشب ، في زاوية وادعة ، من قرية تحت « صنّين » ، زهرة حمراء ، كنقطة الدَّم ، تنبت

حيث أنزلنا المكرزل في التراب ، وتخضّب ما هناك بألوان الشهادة — ويكون ربيع شهدائنا قد أخرج ، في كلّ المنابت ، أزهاره — فيرفع الجبل ، في الجوّ ، رأسه المكلّل ...

كاتب العراق

« في تأبين ابرهيم صالح شكر »

سقى الله ليلة دمشقيَّة ، كانت لنا على « الرَّبوة » ، وبساطاً ، وسامراً ، وحديثاً تحت الشجر ، يأخذ بأطرافه بغداديٌّ من « باب الكرخ » ، ودمشقيٌّ من « القنوات » ، ولبنانيٌّ من هذه الهضب ، التي على الماء ، في عالية « الشُّوف » . ويا عجب العاجب ! ثلاثة رفاق ، من ثلاثة آفاق ، ولا يعوزهم ، من أوَّل الليل حتى شهقته بالصبح ، ترجمان ... فلمَّا ارتفعت الشمس ، ووقف قرصها بين ذينك الجبلين ، المتقابلين ، على الضفاف ، قمنا نحن ، والأنهار ، والشجر ، وجنايب الوادي ، نسجد (او كأنَّنا نسجد) لإحدى الاختين ، الكريمتين (شمس الله ، وشمس العربيَّة) ، اللَّتين تفيضان فيضهما على بغداد ، ودمشق ، ولبنان ، في آنٍ معاً !

ولما غدونا في بعض الطريق ، وقد رجعنا أدراجنا ، والأرض حولنا عاشبة ، ميِّهة ، أشبه شيء بمناديل مزخرفة ، من حرير الصِّين ، فهي تحرِّك الخيال ، وتحرِّك الأمل ، قال ابرهيم :

« مساكين جماعة الجغرافيِّين ، واهل التَّخطيط ، حين يكون أمرهم مع هذه العربيَّة ! يصوِّرون الحدود ، والخطوط ، وهي تجاوز الصور ! ويادبَّ كلة من الشعر ، يهتف بها قائلها ، في بلدة غامضة ، من ارض العرب ، فهي تتخطَّى الصحاري ، وتثب الجبال ، وتتطاير الى الفراتين ، الى ما ورآء النهر ، الى الجزيرة ، الى النيل ، الى عدوة افريقية ، الى الساحل الشرقيِّ ، من المتوسِّط ، الى آخر ديارهم ، تحت سمآء الله ، لايحول دونها حدٌّ ، ولا حجاز ! » .

فقال صاحبي الآخر : « ولا حجاز لبنان ؟ » (يلمِّح هنا ، في ألطف المعاريض ، الى إشفاق بني قومنا ، اللبنانيِّين ، على جبلهم ، والى شدَّة خوفهم عليه) . قلت : « ولا حجاز لبنان ! » .

وكان ذلك اوّل عهدي بابرهيم صالح شكر .

. . .

تلقى ابرهيم ، يومئذٍ ، فترى رجلاً ربعة ، الى الطُّول ، قد هدف للأربعين ، يجتمع عليك منه ضخامة تقطيع ، وشدَّة أوصال ، وعظمة تجاليد ! ثم يسكن اوّل ذلك ، فما تشعر الاَّ بعينين سوداوين ، واسعتين ، قد تقاسمتا لطف الشعاع ، فوقهما حاجبان ، دقيقان ، بينهما خلل ظاهر ، وبجبهة رحبة ، وناصية سوداء ، مجتمعة في كثافة ، وجعودة ، وبأنف وسَط ، وفم وسَط ، ولحية ، من قصر الشَّعر ، وقلَّته ، تدور هناك ، كالظلّ الرقيق . رُكِّب ذلك في وجه يضرب الى السُّمرة ، فيه تغضين ، وفيه لمعات من عصب مكدود ، ونفس معتصرة . ثمّ شيء محبَّب ، قريب المتناول ، كأنَّه الملاحة . الله ! الله ! في تلك المرآة الفريدة . لا الحمام على عود ، ولا ريشه على العود ، أشجى ممَّا يحدِّثك به وجه ابرهيم ، بين الصمت والكآبة . . . فانظر — يا رحمك الله ،

هذا كاتب العراق ، غرّيد الحريّة ، ومغنّي رقائق الفصاحة ، في ظلّ النخيل ، على دجلة . قطرة من قلمه ترجح بلجج الحبر ! وصيحة ، في البطحاء ، من صيحاته ، هي أشدّ هولاً ، على جنباتها ، من جلجلة الرعد ! هذا الذي اقام جيلاً ، وأقعد جيلاً ، وتقاسم ، هو والغيث ، في ملك « هارون » ، فخر الربيع الجديد ! هذا ابرهيم صالح شكر ! فما باله يقبل عليك ، اذ هو يقبل ، وكأنّه متبرّم بالناس ، ممتلئ الصدر بالجفاف ، والجزع ؟ ! ثمّ ما بالك ، انت ، تفطن في طلعته عليك ، لارتوآئه باللّوعة ، وتشعر لغمطه في العيش ! أتراك تحسّ لكلّ كاتب هذا الاكتئاب ، وتشعر عنده لهذا الحرمان (حتى كأنّ صناعة الحروف ، وهي التي من غاياتها تذكية القلوب ، وتمهّدها بالانشراح ، كفآؤها الحزن ، والغبن) ام انك لاتحسّ ذلك ، ولا تشعر له ، الاّ اذا بدا لك ذلك الكاتب !

امّا اذا أخذ المجلس زخرفه ممّن حضر ، وطفق ابرهيم

يشقّق الحديث، بين النغمة الرخيمة، والاشارة المستملحة، رأيتَ طلاوة، ورأيتَ مطايبة، وخوضاً في الحديث، هو اكثر تخلّلاً الى حواشي الرَّوضة المطورة، منه الى حواشي الكلام! ثمَّ ما شئتَ من غزارة مادَّة، وسعة رواية، وحسن تصرُّف، في مختلف المحاورات. وتعجب، عندئذٍ، كيف ينبعث ريحان الحديث من شعل الاحشآء...

. . .

ولقد كتب الله لي، في تلك اللَّيلة، على «ربوة» دمشق، أن يجري بيني وبين ابرهيم كلُّ مستمَع، وأن اتشمَّم، في مهلة، ريحان أحاديثه، وأن أرى بعينيَّ كيف عاد بالجزع، في عالم الحوادث، كاتب نفح الغبطة في عالم الفنون! ثم انّي رأيتُ، لأوَّل مرَّة، في تلك الليلة، كيف يستطيع، في صدعات الرأي، والهوى، بين ملَّتي العرب، أن يزرع، زرع الخير، من يقايس الفوز بالمسعى، ويجعل المطلب على مقدار الممكن، ويفيض الى عقول الناس من

ورآء قلوبهم . . .

كانت عروس الغوطة، دمشق، قد نفضت، يومئذٍ، ثوبها، بعد ايام الحديد والنار، وهدأ روعها، الاَّ قليلاً، واخذت تنقل قدمها من جمر الثورة الى ورد « الجمعيَّة التأسيسيَّة ». فمن رأى دمشق، قبل ذلك، وهي تتدفَّق باللَّهب والشواظ، والصَّخب العالي، بين البيوت، ومغامض الشجر، ورآء بردى، لا يستطيع، في ذلك السَّمر الشهيِّ، وهو على مقربة من مضجع العروس النائمة، أن يصرف لسانه عن حديث « الالياذة » الدمشقيَّة! لحدَّثْنا بنعمة الله على دمشق طويلاً، وتذاكرنا إجادات معلَّقتها على كعبة الفخر! ثمَّ ترامى بنا الكلام الى ذكر نصارى العرب، وحال اللبنانيِّين، منهم، بقضيَّتهم، في بلاد الجبل، وبقضيَّة اخوانهم في الآفاق العربيـة. فانطلق ابرهيم يتوسَّط في هذا الصدد، بين لوم ومعذرة، في ألطف ما يكون التَّلميح الى الإتِّهام، والتَّنويه باسم الثقة، مفصِّلاً

ما كان ، هنا وهناك ، بعد انتقاض العقدة ، وتصدُّع العصا ، من أحوال ، وأفعال شتَّى ، عفا الله عنها ! ثمَّ رأى أن لا يهملنا حتَّى نقول ، فعطف على التأريخ ، يعرض لنا منه ايأم الشمل المجتمع ، والكلمة المتَّفقة ، بين الملَّتين ، في العرب ، ويعجب كيف يُرمى بتهمة الرِّضا من العين بالأثر أولئك الَّذين منهم العباديُّون ، سادة الحيرة ، وساسة الأمر ، في ملك بني ماء السماء ! ومنهم الأحبار ، من بني عبد المدان ، الَّذين بسط لهم رسول العرب بردته ، فجلسوا ، بين العيون ، على بساط العزَّة ! ومنهم خطيب العرب ابن ساعدة ، وطبيب العرب ابن كلدة ، وحكيم العرب ابن صيفيّ ! ومنهم ابن ربيعة ، مرقِّق الشعر ، ومقصِّد القصيد ، وابن وائل ، مضرب المثل في المنعة ، والأخطل الذي نُودي ، في السُّكك ، بامارته على الشعراء — والصليب منبطح فوق صدره ! ومنهم الملوك من آل جفنة ، في حوران والبلقاء ، اصحاب « البريص » ، الَّذين سقوا بردى « يصفَّق بالرَّحيق السَّلسلِ » . . .

ومنهم ابنآء سرجون، وزرآء التَّدبير في بلاط أُميَّة! ومنهم بنو جذام، وبنو كلب، قوَّاد معاوية على الرايات، ومحضّرو اهل البداوة، في الأطراف! ومنهم أشراط البحر الاحمر، وقادة العمارة العربيَّة الأُولى، في فتح قبرص، ورودس، وفي قهر عمارة بيزنطية! ومنهم اصحاب «الصليب ومار سرجيس...»، الَّذين أخمدوا ليزيد، في الحجاز، نار ابن الزُّبير! ومنهم أبطال «الأخطليَّة» الكبرى (خفَّ القطينُ)، الَّذين رمى بهم ابن مروان على المتألبة، في عراق، وحجاز، وعادوا برأس ابن الحباب، فوق رمح! ومنهم اصحاب العلم الهندسيّ، الَّذين بنوا الجامعين: الأمويّ والاقصى، والقصرين: الحير، والمشتى! ومنهم المعرِّبون، والمؤلِّفون، الَّذين حاكوا باقلامهم وشي العربيَّة، على فلسفة آثينة، وحكمة رومة، من زمن معاوية الأُمويّ، الى زمن الواثق العباسيّ! ومنهم الرُّهبان، الَّذين آووا لغة محمد، وأنزلوها في الأديار، والبيع، منازل الأمنة، يوم

تدفّق على ديار العرب طغاة العجميّة ، أمثال هولاكو ، وجنكيز ، وتيمورلنك . . . الى آخر ما سرد ابرهيم من الأمر النصرانيّ في تأريخ العرب ، ممّا يردّ القلوب الى التّذكار ، والحنين . واذ هو فرغ من ذلك ، قلنا له : « لك الله ! ملأت المكان سحراً . . . فلقد رأينا جمال أزمنة ، ورونق ممالك ، وآنسنا امّة ، وجامعة ، واتّحاد وجهة » . ثمّ قلنا له : « لك الله ! مرّة ثانية . هكذا يكون الدُّخول من أبواب القلوب ! ! » . . .

. . .

فمن كان يبكي ، اليوم ، على ابرهيم ، لقلم تركه ، ولا من يستطيع أن يغمسه في دواة من نار ، ذهاباً مع حرّية في في النَّفس ، تملك على صاحبها اللّسان ، والفكر ، وتلجّج به في محيط الأحزان ، والآلام ، والعداوات ، وشدّة الغمط ، والفاقة ، مما قد كُتب على بسلاء الرأي ، في هذا المجتمع الانسانيّ ، من الّذين يضيئون العقول ، والقلوب ، كالمشاعل ،

ثمَّ يحترقون في زاوية مظلمة، من عالم الفدآء! أو كان يبكي عليه لطريقة في الكتابة، هي كالموج في مجمع الفراتين، في الوادي: سلاسة وصفآء وحلاوة حركة في الرِّضا، ورغوة وتدفُّق وضوضآء في الغضب — مردوداً، كلُّ اولئك، الى رصانة جمل، وشرف فرائد، والى ملكة، من اشدِّ الملكات انطباعاً على الفصاحة، فمن كان يبكي على ابرهيم، من أجل هذين، فاني بكيت، فوق ذلك، لعربيّ، رأيت منه، في ليلة «الرَّبوة»، كيف يكون الجمع الصحيح بين رياح العرب. وها انه قد مضى علينا نحو من خمس عشرة سنة، منذ لم نلتقِ، وأنا لا أجد، في ذلك، من يأتي العجب الذي أتاه!!

ثمَّ إني بكيت لأخ، قد عبر الجسر الى الأُخرى، وبقيت انا في الدنيا، أنظر منها، وأسأل، بعد المعشر العابرين: ايُّهما أضحت دار الأحبَّة...

الكاتب الخازني

« في تأبين الشيخ يوسف الخازن »

وكان ، رحمه الله ، قد تضايق عليه صدره ، في سنة ١٩٤٣ ، فرحل عن الفرنسويين ، في لبنان ، ونزل على الايتاليين ، في عاصمتهم ، ثم قضى هناك أجله .

في اليوم الرابع عشر ، من شهر نوّار ، سنة أربع وأربعين وتسع مائة وألف ، انطفأ في المدينة الابديّة ، بين أسفار السمعانيّين ، وألواح رافائيل ، وتماثيل ميكال آنج ، وعلى مقربة من دهاليز « المعترفين » ، والشهداء ، سراج لبنانيٌّ حبيب ، اضاء العقول ، والقلوب ، على جبلي المقطّم والأرز ، خمسين عاماً ، ونيّفاً ، وتذكّر الناس بموت هذا الطائر ، المحكيِّ في النثر ، قول الطائر ، المحكيِّ في الشعر :

يقولون لي : ما انت في كلِّ بلدةٍ

وما تبتغي ؟ ما ابتغي جلَّ ان يُسمى ...

ودخل في سرِّ التأريخ ، وفي لغز العباقرة ، اسم جديد ! !

ولعمرك : انَّ من حقِّ الناس أَن يتذكَّروا بموت هذا الكاتب الشريد الطريد ، ذلك الشاعر الشريد الطريد ! فانَّ في حمل الرغبات الجامحة ، ودوام التطلُّب من الزمن ، وفي الملالة من المقام ، والعزوف عن الطراوة ، وفي التعب من التفكير في الدنيا ، والمهجة ، والرجوع بالاقلام الخائبة ، وضياع الرجآء من « سيوف الدُّول » ، والرحلة عنهم ، والنزول على « كوافيرها » ، يجد الناس ، اليوم ، مشابه واضحة بين ابي الطيِّب المتنبئ ، الذي لا تُفتح العين ، بالهيِّن ، على من يشبهه في جليلة ، ويوسف الخازن ! فلقد مضى الرجل الى ربِّه ، ورُفع حجاب المعاصرة ، وأُسقطت اسباب الحسد ، وطُويت مودَّات ، ودُفنت ضغائن ، وجآء الموت بصفآء الحقِّ ، وخشوع الضمير ... وانه لمن الحقِّ ان يُذكر المتنبئ بالخازنيِّ ، في هـذه الشِّيمة العبقريَّة

الغامضة ، التي يُختم على سرِّها في الحياة ، ولا يُفكُّ لها معمًى في الموت ، والتي من أجلها عاش صاحبنا على قلق ، في الكتابة ، والسياسة ، والرحلة ، والاقامة ، والتقلُّب ، والمعاش ، ومن أجلها لقي صرعته القاضية . امَّا الذي ظنَّه الناس منه سأماً ، فقد اصبح ، في باب شذوذ العبقريَّة ، واستغلاق اشيائها ، نشاطاً ، واصبح البطء سرعة ، والإغفال مراقبة ، والالتباس وضوحاً ، كما اصبح التردُّد ، بين شيئين ، امضاء نيَّة ، وقطع عزم ! هذا ما يقال له : مرض العبقرية ! — مرض اهل التميُّز في الطِّينة ، وهو الذي يُؤثر على الصحَّة ، ويُضنُّ به على المعافين من الناس . بينا انت تراه ، في عالم الحوادث ، التياث مزاج ، اذا بك تراه ، في عالم الفنون ، قيام عافية . وبينا تراه في ذاك مدعاة للتَّهجين ، اذا بك تراه ، في هذا ، نجماً ، عظيم الشأن ، لا يحيط الوصف بمعاني مدحه !

واذا كان قد جاز لنا ان نقرن اسم يوسف الخازن الى

اسم واحد الآحاد، ابي الطيّب، فانما الجواز، في ذلك، مردود الى كون الخازنيّ قد اصابته العلّة . . . فمدحُهُ ثم هجوُهُ، وثقته ثمّ اتّهامه، وعزمه ثمّ انثناؤه، ورغبته والملالة، وصبره والجزع، ورضاه والكره، الى آخر هذه الاطراف المتعارضة — اضفْ ما كان من تحريره الشذوذيّ العجيب لكتابته، حتى لقد كان يتخلّى، في الأحيان، لتمحيص مسألة، او استخراج لفظة، ثمّ تبدو له هناك بداة، فيترك، ثمّ يعتزم، فيزاول، وهكذا من احوال، وافعال، شتّى، كأنّ العبقريّة خطرات، او دفعات غيث متقطّعة! فهذا، كلّه، شواهد ناطقة على الأمر العظيم!

وهكذا تكون الرّزيئة بيوسف الخازن رزيئة بواحدٍ، هو في الطبقاتِ العلى، من النبوغ القويّ، الذي لم يخرج الى حياة متموّجة، دائمة الكرّ، فحسب، بل خرج الى فنٍّ من فنون الكتابة، ليس ورآءه اليوم في التنسيق، والعذوبة، وغزارة المادّة. اي انّ العبقريّة قد تلقّت قلمه

من كلِّ جهة ، كما تلقَّت حياته . واذا هو ، فوق الكاتب العجيب ، في الأدب ، والسياسة ، اصمعيٌّ لبني قومنا اللبنانيِّين ، في انسابهم ، وآدابهم ، واخبار اوَّلهم ، غاية في التنقير ، والحفظ ، والتَّفريغ من أوعية مختلفة . واذا هو فوق الكاتب ، والرَّاوية ، ظريف اروع ، مدَّ بساط النكتة ، في ادب العصر ، ونادى على الأُنس ، فتجمَّعت عليه الارواح ، وتقاتلت المسامع ، واصبحت النكتة « الخازنيَّة » ، بفضله — وهي المنسوبة الى اريحيَّة آبائه — عربيَّة عامَّةً ، تطيِّب المقاطع في لغة القرآن ، بعد ان كانت لبنانيَّة خاصَّةً ، لا تتعدَّى المحاضرات في بلاد الجبل .

. . .

ثم تذكَّر الناس ، بموت يوسف الخازن ، وهم اليوم ، في لبنان ، في حديث الاستقلال والكرامة والحرمات العامَّة ، انَّ ذلك اللِّسان ، الذي أُرهن التراب الايتاليَّ ، لم يقنع بالتقلُّب على يتامى الدرِّ ، في صناعات الفصاحة ، بل

طالما كان هو الطليق ، البليل ، في توفية حقّ الوطن ، لا يتلعثم ، ولا يتلجلج ، ولا يعترضه ، يومئذٍ ، شيء من شفاعة تأريخ خازنيّ ، ملآن ذمماً ، أو شفاعة تأريخ لبنانيّ ، ملآن مواثق — ذلك يوم كان التلميح الى الحاجة العامّة ، في نوبة الحرمان ، يُعدُّ خروجاً من صداقة ، لا تُباع بكثير ، ودخولاً في عداوة ، لا تُشرى بقليل — بل هو كان ، وأبيك ، يُعدُّ من قبيل أخذ الفريسة من بين شدقي الأسد ! فكيف ظنُّك بفصول مدبَّجة في جريدة ، وخطب محتشدة في مجلس نوّاب ! فما ظلم الشيخ ، في دفع المغرم ، وجرّ المغنم ، لكنّه اشبه آباءً ، وجرى على أعراق ، وكان قوله عند كل ملمّة « هأنذا » ، على انه من أجدر اللبنانيّين ، في تأريخ القيام بالملمّات ، بقولة « كان أبي » . . . له النسب الحرّ ، في كلّ قطعة ، من المجد الجبليّ ، المحبوك بمآثر آبائه ، وقد وضعوا الآساس ، وشادوا الدعائم ، وحاطوا البناية بالسيف ، وبالسياسة ! من ابي صقر ، ابرهيم ، الذي اطلع

من نافذة بيته ، في « بُلونة » ، شمس الامارة « المعنيَّة » ، وكانت ، في حجره ، قد تعلَّمت التَّصعيد في فلك الحكم ، وتقلَّد « الكتخديَّة » ، في دولة « ابن قرقماس » — والأيادي قروض ! فكان هو مدبِّر التخت ، بين بعقلين ودير القمر ، عليه المشورة ، واليه الخراج ، ورفع الحوائج . حتى اذا أغارت خيل « سلطان البرّ » على بني سيفا ، بين الموج والصخر ، في « نهر الكلب » ، وخفقت بالنصر رايات اللبنانيِّين ، نُودي في كسروان بابن الخازن اللبنانيّ ، بعد ابن سيفا الكرديّ !

الى ابي نادر ، خازن ، الذي ورث « الكتخديَّة » تالياً عن سابق ، وسعى لآمال فخرالدين في التوسُّع ، بين رسل « توسكانة » ، وقصَّاد الفاتيكان ، ومكَّن القدم في المقاطعة الكسروانيَّة ، من نهر « الجعمانيّ » الى خليج « المعاملتين » ، بعد ان كان المعنيُّ قد نزل عنها ، لبني سيفا ، اعواماً متعدِّدة ، فردَّ اليها النافرين ، ومهد فيها للأديار وبعثات

التَّعليم ، ووقف الضَّيع ، وبنى البيع . ثمَّ تولَّى جبيل ، وجبَّة بشرِّي ، وفعل فيهما تلكم الفعلات ! حتى اذا حمل الشراع فخر الدين ، الى عاصمة « الغراندوكة » ، اصبح ابو نادر قيِّماً على « يونس » في الامارة ، فكان الوزير في الحضرة ، والامير في المغيب . ثمَّ غدا ، يوم زلزل التَّخت بصاحبه ، رفيق البلوى ، في مغارة جزِّين ، ورفيق القيد ، في قلعة دمشق ، وصحَّ فيه المثل : « أوفى من عوف ، شدَّ في الشدَّة ، وما تراخى في الرخآء » .

الى ابي نوفل ، نادر ، الذي ورث في جاه المعنيِّين ، واستحدث ، واعتزَّ في قلعة « أسمار جبيل » ، اعتزاز ابن عادياً ء في الأبلق ، وكان « للكتخديَّة » ، ولكلٍّ عظيمة ! فعاون قيساً ، في برج بيروت ، على يمن ، وخرج « بكفاليريَّة دومة » ، يوم أمر الناس بتغيير اللِّباس ، والركوب ، في سيف لاتدخل شفرته في غلافه ، وفي طوق من جوهر ، ومطرف من شقق الدِّيباج ، يجرُّ في الارض ! ثمَّ أُلقيت اليه

الفرامين من فرسايل ، والبراآت من توسكانة ، وصرف في قنصليَّة فرنسة ، وفي قنصلية البندقيَّة ، ثمَّ وطَّأ ما بين « الأزواق » ، وشعفات حاريصا ، للبطاركة ، من موارنة ، وملكيِّين ، وسريان ، وأرمن ، وكان ، لهؤلآء جميعاً ، ما قاله ابن غزيَّة في حماسيَّته : « أمَّا أفرشت فأنامتِ ... » ، فسكن روعهم ، وأنسوا . ثمَّ قام بامانة العلم ، فكتب « تأريخ فخر الدين المعنيِّ الثاني » ، وبأمانة الحضارة ، فبلَّغ عصره ، في تجارة الحرير ، وصناعة النَّسيج ، والنَّقش ، ما كان في نفسه .

الى ابنآء ابي نوفل الثمانية ، وهمُ ، همُ ، سقى الله عهدهمُ ، من كلِّ سابق في الحلبات اللبنانيَّة ، يجدر ان يُتمثَّل فيه بما قاله الشمَّاخ في أوَّل من أرَّخ بالهجرة :

فمن يسعَ ، او يركبْ جناحي نعامةٍ
ليدرك ما قدَّمتَ بالأمس ، يُسبقِ

والذين جرى دم أوسطهم في عروق يوسف ، ودخلت

فيه اخلاقه على حبِّ الكرامة، وحماية الذمار، وخرج رأس سيفه في قلم حفيده . . .

هذا هو الخازنيُّ الذي تبكي، اليوم، على قِطَعه وطواله، في ممتعات الفصاحة، لغة الجاحظ، وتتذكَّر امَّة اللبنانيِّين قلمه، في ظلِّ الجمهورية، وسيوف آبائه، في ظلِّ الامارة. وسلام الله عليه، وعليهم، يوم يلجُّ الشوق بالناس الى الوجوه الحبيبة، والأيدي المفضلة!

كلمة النقابة

ألقاها المؤلف ، باسم نقابة المحامين ، في مناحة المحامي الشيخ عزيز الهاشم .

الى هذه المناحة التذكاريَّة ، المهيبة ، التي تُعقد على اسم فائت حبيب ، قضى حياته في طلب مراضي الحقّ ، على شطري العلم والعمل ، أحمل ، الآن ، كلمة النقابة ، في ابنها المرتضى عنه ، تزكيةً لهذا الاجماع ، في الأمة ، على إكبار مصابه !

ولقد شجاني أن اكون ، انا نفسي ، حاملاً كلمة النقابة فيه ، فاني بمكاني منه ، في قرب النَّسب ، وفي الذّمم ، وفي حرمات ، وأواخيّ ، وأسباب تُرعى ، لأحقُّ أن اكون المعزَّى ، القاعد في المناحة ، لا المعزِّي . ولكن في كلمة النقابة المحترمة من التَّشريف لاسم عزيز ، ومن قيامي بها اتحدَّث بعزيز ، وأنوِّه بقدره ، وأشيد بمناقبه ، ما احسُّ ،

معه ، انني اروِّح من وجداني ، وأطرح من ثقل همِّي ! وهكذا أجد لنفسي ، ورآء هذه الرسالة الروحيَّة ، التي اتحمَّلها اليكم ، وجه الشَّجو ، ووجه التَّخفيف من الشَّجو ، في آنٍ معاً .

ويرحم الله عزيزاً ، فانه اقبل ، منذ أوَّل نشأته ، على علوم الحقِّ ، وصناعات البرهان ، وعبَّ من تلك الينابيع العقليَّة ، ما شآء الله له . فلما امتلأ ما بين فؤاده وفمه ، بطبع ريَّان من حبِّ الحقِّ ، وحبِّ الحرِّيَّة ، خرج الى العمل ، فوجد انَّ ذلك الطَّبع السَّمح قد ملك عليه عنانه ، وانه قد غدا ، هو ، ينظر الى كلِّ أمر ، من خلال الحقِّ ، والحريَّة . لا يرى هذا الاَّ بهذا ! سيَّان عنده ، وقد وقع له التَّرجيح ، في المسألة ، أطلع برأي تتحفَّز له المسامع ، او انفجر بآخر تنكمش دونه ! وكان أن وجد في المحاماة فسحة ، يُخلَّى فيها بين المرء وما اختار لنفسه ، من المشارب ، فعاف عزيز قيد المنصب الحكوميِّ ، من يومئذٍ ، ونزل علينا في المحاماة ،

في هذه الفسحة الحرَّة !

وكان رصيفنا موزَّع الخاطر ، في كلِّ يوم ، بين دعويين : دعوى موكِّله ، ودعوى بلاده ! فبينا أنت تراه ، في مجلس الحكم ، يفصِّل النُّصوص ، ويفرِّع المسائل ، اذا بك تراه ، في مجلس السياسة ، يلطِّف المداخل ، ويوثِّق المطالب . فانَّ دعوى قومه ، بحرِّيتهم ، وحقِّهم ، لم تكن عنده أقلَّ شأناً ، ولا أحقَّ باهتمام ، ولا أجدر بتعهُّد ، وجهد فكر ، وإعنات رويَّة ، من دعوى موكِّله بحرِّيته ، وحقِّه . فكان رصيفنا محامياً عمره ! يدافع ، ويناضل ، ويقلِّب لسانه فوق البراهين ، والحجج ، عامَّة يومه .

امَّا طريقته في الصناعة ، فمزيج من اللِّين ، والكيس ، والاطمئنان ، وبعد الأناة ، الى ظرف حلو ، وذكاء حاضر ، وحسٍّ خفيف . آية في الجدل : لا يرفع صوته ، بل يرفع رأيه ! كلَّما عتا خصمه ، وتعسَّف ، رأيته هو — وقد صفا ، وراق ، وأفاض ما عنده — أشبه ما يكون بالجدول الرضيِّ ،

الذاهب في ألفاف الغاب - يفعل فعله ، ولا جلبة . . .

ولم يكن ، رحمه الله ، في الفصاحة العربيَّة ، على ما كان عليه في الفصاحة الفرنسويَّة . رجحت خلف لسانه كفَّة « راسين » ، وشالت كفَّة « الجاحظ » ! يطلع في حلقة المحكمة ، فلا يزخر بالعربيَّة عبابه ، ولا يمتلئ فمه بصنوف بلاغاتها ، كما هي الحال عند المتخلِّين لها . فأمَّا اذا خلا بقلمه ، بعيداً عن الارتجال ، رأيت ، ثمَّ ، نثراً عربياً ، سائغاً ، لطيف الطلاوة ، رخيم الحواشي ، مرجوعاً فيه ، كلّه ، الى الطَّبع .

وكان عزيز ، في الرُّصفاء ، أثبتهم على عهد ، وألطفهم في ظلّ ، وأسرعهم في تغمُّد المؤاخذة ، وأمدَّهم في بذل المشورة ، واصطناع الجميل . رصيف ، بأجمع ما في هذه الكلمة من معاني الحرمات !

امَّا المكسب الشائن ، وامَّا الوسيلة المنخفضة ، فذلك ، كلُّه ، كان في ناحية ، وكان عزيز في ناحية أُخرى . ثناه

عنه إبآء يتعظَّم عن الدَّنايا . فكان إن أخذك من عزيز جانبٌ خافضٌ ، وبالٌ ، وليانٌ ، فجأك منه ، في مواضع الأَنفة ، رجل جمع ثيابه على ناب ، وظفر ، فتسأل ، حينئذٍ ، نفسك : من اين جآء الأسد ؟ . . .

ذلك هو فقيد النقابة ، الذي ما برح ذكره ملهجَ الألسنة ، بين ابنآئها ، والذي تحتسب فيه أجر الأم الثاكل ، وتسأل الله أن يجري الى روحه ، في دار العدل العالي ، ثواب حبِّه للحقّ ، وعمله له في دنيا الباطل !

في سبيل الصواب

الى روح صديقي ابرهيم عبدالقادر المازني .

وهو الذي كان ، في زماننا ، من اعرف
كتاب المصريين كيف تجعل القاعدة بازآء الطبع ،
ويجعل الفن بازآء الطبيعة ، والفكر بازآء الحياة .

رأيت لأبي الوليد الوقشي :

برح بي أن علوم الورى
علمان ما أن فيهما من مزيد
حقيقة ، يعجز تحصيلها
وباطل ، تحصيله لايفيد

البلوي
في « ألف بآء »

حب التغيير

أُلقيت في « محطة الاذاعة اللبنانية » .

آية هذا الزمن : حُبُّ التَّغيير ! ومن هنا ما ترى ، اليوم ، مثلاً ، من حبِّ الناس للرِّحلة ، وتقاتلهم على الجديد. ولقد كان الناس ، قبل زماننا ، يسيحون في الآفاق ، ويغذُّون السَّير ، وينزلون منازل الغربة ، لكنهم لم يكونوا مثلنا ، في حبِّ الرِّحلة ، لمجرَّد حبِّ الرِّحلة ، والالتذاذ بالجديد الطالع . كانوا يمتطون غارب السفر ، في تحقيق مطلب ، وبلوغ غاية ، ونحن نسافر ، اذ نسافر ، اليوم ، حبًّا للتنقُّل ، والكشف ، وتبرُّماً بالأشياء التي عُوِّدنا رؤيتها . امَّا ايام الناس بلذائذ التأمُّل في الحقائق الماثلة ، وبتكرير النظر في جمال الدوام ، وفي سرِّ القدم ، فهاتيك ،

لعمرك ، قد خلت ! ومن هنا ، ايضاً ، ما ترى من حبِّ الناس لتغيير الرأي ، وللتعجُّل في تغييره .

وانت تعلم ، ايها السامع ، انَّ عالم البشر يقوم على العقل ، وهو الذي لا يبرح متطوِّعاً للتغيير ، أي لمحاولة الصواب ، وطلب الأفضل ، بخلاف عالم الحيوان ، الذي تخضع فيه الغريزة لاطِّراد لا ينقطع ، وانَّ هذه القوانين ، التي تُبسط على الاجتماع الانسانيِّ — وهي ، ايضاً ، في متحوِّل ، كلَّ يوم — ليست قيوداً ، وسلاسل ، بل قواعد ، ودعائم ، يتوكَّأ عليها العقل ، في طلب الجديد من وجوه الخير ، وانَّ الَّذين يعيشون ، في زماننا ، ثمَّ لا يحسُّون جديداً ، ولا يشعرون بانقلاب عن وجهة ، وانصراف عن عقيدة ، هم أهل بلاهة ، تبلَّدت أذهانهم في دقائق الحياة . وأضفْ انَّ هؤلاء لن يكون لهم ، في وقتهم ، أن يتأخَّروا عن الرُّكبان ، اذ انَّ حبَّ التَّغيير لم يبقَ ، كما كان في أزمان التأمُّل البائدة ، نزاعاً من الشوق ، والحاحاً من التفكير ،

بل هو قد اصبح نتيجة لما تفرضه مشاهد السرعة ، وجدائد الحاجات ، التي جرّها ، في مختلف حالات المعايشة ، ارتقآء الآلة ، والمطبعة ، واستفحال حكم الشعب ، وتبسّط العقل في الكشف العلميّ . والناس تعدي الناس ، في العلّة ، وفي الخلق ! والعهد ، كما ترى ، هو عهد هذا « الرّاديو » ، الذي تتقلّب فيه أهوية الارض بغمزة زرّ ، وعهد هذا « الصّاروخ » ، الذي يخطف في أعنان الجوّ ، باسرع ممّا يخطف الصوت . فمن ذا الأحمق الذي يظنّ انه يكون له ، بعد اليوم ، أن ينعزل ، في جزيرة خواطره ، عن الناس !

هذا ، وانّ للماضي جمالاً ، فيه سعة وريٌّ ، وللاشيآء المنقضية لذائذ ، تشعر بها دقّات القلوب . . . ويا طالما تزوّد الناس من الفائت ، الذي لا يعود كرّةً أخرى ، ويا طالما انتفعوا بدمنة ، وتوصّلوا الى الخير بذكرى ! الاّ انّ ذلك ، كلّه ، مردود الى فضل التّغيير ، فانه لولا ذهاب القائم ، وترك الجاري ، لما اصبح الماضي ماضياً في الزّمن . . .

وانّني لا أعرف لك ، في لذائذ النُّقلة ، لذّة هي أشهى من ركوب الطيّارة ، لأوّل ما تركبها في حياتك ! فلقد بكرتَ في الصبح السعيد ، تحلُّ مكانك في المركب السماويّ ، ونظرتَ في من حولك ، من أهل وأحبّة ، يشيّعونك ، وهم كأنهم يتمنّون مثل حالك ، في الخروج الى الارض البعيدة . ثمّ تنهض بك الطيّارة ، ثمّ تصعّد في الطبقات العلى ، فتنظر ، انت ، الى ما انخفض من وادٍ ، وجبل ، وريف ، وبحر ، ونقط بيض ، ولعلّها المدن ، ورقاع صفر ، ولعلّها البوادي ، وكأنك تكاد تسأل نفسك ، في مثل تجاهل العارف : ما هذه الدنيا ، التي تمرُّ من تحتك ! فيا رعاك الله ، على منكب الريح : ما تغيّرت الدنيا ، التي فصلت منها ، منذ ساعة ، لكنّ هذا البشريّ الفاني يصبح ، لأدنى جديد يلابسه ، غير ما كان ، من ذي قبل ! طبع مركّب في صدره ، لا يد له فيه . فها انك ، انت ، في الطيّارة ، المتقلّبة بين الزرقاء والغبراء ، قد بدّل الله سأمك نشاطاً ، وعبوسك

طلاقةً ، وقسوتك رقّةً ، وتبرّمك من تكاليف العيش رجاء ، وحباً للحياة ، والناس ، والتواصل . ثمّ تحطّ بك الطيّارة في البلدة الغريبة ، فتطوّف ، من ساعتك ، في الشوارع ، وتمرّ بالمنازل والحدائق ، وكأنك ، ممّا احاط بك من بهجة الجديد ، تبيت تُبشّر ! تبدّلت بأرضك ارضاً لا تعرفها ، وبيني قومك قوماً لا صلة لك بهم ، فاذا انت لا تزال غارقاً في سرور الكشف ، والاختبار ، حتى تلزم السكن الذي نقلت اليه ، وتبلد به ، فتسأل الله ، بعد ذلك ، أن يهيّئ لك طيّارة أخرى ، تحملك الى بلد آخر . . . ولعلّ الى هذه السجيّة العجيبة ، وما يُضاف اليها ، يُردّ افتتان الناس ، في كلّ زمن ، بكتب الرّحلات ، والسّير ، والقصص ، وتطايرهم ، في هذا الزمن ، الى دارات السينما ! بل لعلّ اليها ، ايضاً ، قد نُظر ، في ماضي الإسلام ، في الوقف على السُّيّاح ، والرحّالة ، وأهل الرُّجلة ، يُنفق لهم ما يعينهم في إتيان الآفاق . ومن ألطف ما نُقل ، في هذا

الباب ، ممَّا يساير المعنى ، الذي نحن فيه ، أن قد وُجد في دمشق ، وفي حاضرة مرَّاكش ، وقف لسقيا الماء المثلوج ، في ايام القيظ ، للمارِّين على الطُّرق . وقيل : ان الماء المثلوج ، في وقف دمشق ، كان يُسقى بالخرُّوب ، وبماء الورد !

وهكذا يتحصَّل : انَّ الفطرة الانسانيَّة قائمة على التَّغيير ، وانه من جرآء احوال ، وأفعال ، شتَّى ، ممَّا يعرض في هذا الاجتماع القائم ، قد بلغ حبُّ التَّغيير ، في ايامنا ، غاية لم يبلغها في يوم سابق ، وانَّ مداومة الشيء لم تبقَ ، هي ، رأس الفضائل ، فلا حرج اليوم ، على من أخذ بجديد ، وانَّ بيت كثيِّر في عزَّة :

لقد زعمت انِّي تغيَّرتُ بعدها

ومن ذا الذي ، يا عزُّ ، لا يتغيَّرُ !

وهو الذي هتف به صاحبنا ، من ثلاث وعشرين ومائتي سنة ، والذي زيَّفه نُقَّاد المعاني ، في الشعر ، وندَّد به

جهابذة الأخلاق ، قد سيغ ، اليوم ، كثيراً ، وأُدخل في
باب الإجادات المعدودة !

كتاب كارليل

هي المقدمة التي وضعها المؤلف لمعرَّب كتاب كارليل : « الانسان ذلك المجهول » . وقد ترجم الكتاب الى العربية الأب سويد .

كان من الوقوع ، بلا قصد ، ولا انتظار ، أن يُلقى اليَّ هذا الكتاب في بيروت ، في أعقاب فصل الربيع ، فلا أحرِّك ورقة ، منه ، في عاصفة المشاغل ، وان يستهلَّ الصيف أيامه ، يُبعيد ذلك ، ويطيب الزمان في الجبل ، فأنزل هذه الضَّيعة ، بين المنابت والمزارع ، في وادٍ قصيٍّ ، من أودية « الشُّوف » ، ويكون أوَّل ما يخطر لي هو أن أشقَّ الكتاب على عين ماء ، وعلى ظلٍّ ، ونسيم — كأنَّ هذه الفلسفة « الكارليَّة » ، الهانئة ، أحقُّ مكان بها هذه الطبيعة الريفيَّة ، الهانئة . أي عزلة لعزلة ، وصفاء لصفاء ! أدير عينيَّ من كتاب كارليل الى كتاب الطبيعة ، فاذا

الصحيفة لم تتبدَّل ، واذا الخاطرة لم تنقطع . . .

وكان من ذلك ، ايضاً ، أن تكون قدمتي ، الى هذه الضَّيعة ، بعد فرقة طويلة ، وحدثان كبار ، وأن اكون قد صرفتُ فيها — والعُود ، بعدُ ، أخضر ، أي منذ واحد وعشرين عاماً — جقبة لم يكدِّرها مكدِّر ، من تكاليف العيش . فكنت وراء الغابة العميمة ، أو عند الحقل المترامي ، بعيد الذهن عن ذلك الحريق الاوروبيِّ ، العظيم ، الذي رجَّت له ، يومئذٍ ، كرة الأرض ، أنزلُ على الفلسفة في خزانة كتبها !

وهكذا يتَّفق لي ، اليوم ، أن اعود الى « المطيلة » ، حيث لا تبرح آثار اصابعي سالمةً من المحو ، ههنا ، في هذا الكتاب القديم . . . وأن تقع أوبتي اليها بعد أن تصفَّحت الف كتاب ! بل يتَّفق لي أن أجلس الى عين الماء ، التي تنبع ، من مهجة الحجر ، هنيئاً — على مثل عهدي بها ، من قديم — والحريق في اوروبَّة يكاد يتعالى دخانه ، عند

أبواب « بولونية » ، تحت القسطل الالمانيّ !

فعلى خطوات ثلاث ، من مكتبة الطبيعة ، في « المطيلة » ، أجلس الساعة ، وهذا الكتاب في يدي . فكأنَّ الزمن قد نكص على عقبيه ، وعاد الفتى ، الذي كان يجلس هذه المجالس ، في خضرة العمر ، تحت الشجر ، الى طيب الصِّبا ، وخلآء الخاطر ! بل كأني به ، بعد أن طوَّف في كلّ وجهة ، على سواحل الفكر ، وسلاسل جباله ، وعرته حرارة السعي ، قد جآء يلقي العصا . . . فهو يراجع ، الآن ، في دار الدَّعة ، وجمام القلب ، فهرس همومه ! فاذا آلآف الكتب ، التي علقت بصدره ، والتحمت بعقله ، بعد طول المكابدة ، في عالية النهار ، وسافلة الليل ، هي أخلاط معرفة ، تضطرب في الثِّقة ، وتتلاشى في الظنِّ ، بينما لاتزال هذه الطبيعة ، في كتابها الفريد ، متَّصلة السِّياق ، غير منفسخة لعارض . واذا صاحبنا قد تحفَّظ صنوف المعارف ، وتدارسها في الورق ، بينما اهل الفلاحة ، هؤلآء ، لم تُشب أصابعهم

بسواد الحبر . . . فهو يكتب الفلسفة ، وهم يعيشونها ، وهو ينظر الى الدنيا من صحائف كتابه ، وهم يشرفون عليها من نوافذ بيوتهم !

. . .

في هذا القنوط من الكتب أُقبل ، الآن ، على كتاب كارّيل ، وفي هذه العزلة عن التفكير افتح على نفسي باب الفلسفة . والدنيا من حولي حلوة ، خضرة ، والرَّغد مخيِّم ، والزمن وادع ، فما لي انحدر الى هذه الجَنَّة ، وفي يدي كتاب ، فكأنَّني انقل اليها النار ؟ ! ولكن اسم الكتاب يكاد ينظر الى معنى السأم من الكتب ، ومن دوران العقل ، ولفِّه ، حول المعرفة . اذ القول انَّ الانسان ما فتئ مجهولاً ، الى ساعتك ، هذه ، ليس هو ، في باب المرية في العلم ، والتبرُّم به ، أمراً يسيراً — على انَّ المصنَّفات الأُصوليَّة ، التي اصدرها ، مثلاً ، « هاشيت » ، في هذا العام ، في فنِّ التركيب البدنيِّ ، هي ، برأسها ، مكتبة ! فكارّيل ، اذنْ ،

يوافيني ، الآن ، على ميعاد . . .

وكارّيل « ليس فيلسوفاً ، وانما هو رجل علم ، يقضي الشطر الأكبر من وقته في المختبرات ، يدرس الكائنات الحيَّة ، ويصرف الشطر الآخر ضارباً في ارجآء العالم الواسع ، يراقب الناس عن كثب ، محاولاً ان يلمَّ بهم ويفهمهم » . أي انه رجل لم تشفِ الكتب صبابة نفسه ، فجآء هو ، بنفسه ، يكتب كتاباً ، يشفي به صبابته ! فلا أوضاع أُصوليَّة ، ولا طرائق ، ولا قرارات ، من تلك التي تُحاط بالتَّبجيل ، وتُصان عن الأخذ والردِّ ، والتي يُقال فيها انها نتاج قرائح ، ومحصَّل عقول — كأنَّ العلم قد انتهى الى عاقبة ! واذنْ فقد توافقنا ، واذنْ فقد طابت الرفقة ، من اوَّل الكتاب الى آخره .

وعسى القارئ أن لا يحسب انَّ المؤلِّف يحاول الاهتدآء الى سرِّ الحياة — ونريد بسرِّها ، ههنا ، ذلك المعمَّى ، الذي تكسَّرت القرون في نطحه ! فانَّ الذي يهتف ،

في عنوان الكتاب، انَّ الانسان ما برح مجهولاً، الى اليوم، أي انَّ الوف الأُلوف، من نوابغ الطِّينة البشريَّة، من الذين تقدَّموا على البحث، في فكِّ ذلك المعمَّى، لم يظفروا بطائل، وظلَّ هو معمَّى الى اليوم، فمن هتف هكذا أوَّلاً، لا يصحُّ له بالتالي (وأَستغفرُ تواضعه !) أن ينطح قضيَّة، طبقتُها فوق طبقة العقل — في حين انَّ علم العلماء بعجز العلم، عن النهايات التي لا تُلحق، يفضي بهم الى التواضع. فكارّيل بعيد، عن ذلك المعترك، كثيراً، وانما هو، منه، في نقطة تتَّصل الى موضوعه بالتَّسمية، لا بصحَّة وقوع الاسماء على المسمَّيات. فيقول: سرُّ الحياة، ولكنَّه يريد إرجاء الهَرَم، وجعل حظَّ النفس فوق حظِّ المادَّة، وصرف العلم عن الميكانيك، والطبيعيَّات، والكيمياء، الى الجسم الانسانيِّ، وهلمَّ جرًّا — ولقد تقدَّم لنا انَّ الرجل لا ينتهج مسالك الأُصوليِّين، في إطلاق المصطلحات، وحذو الطرائق. ومن هنا تعلم انَّ هذا المؤلَّف، وهذا

الكتاب ، هما من غير ذلك القبيل .

وبعدُ ، فالكتاب ، في جملته ، يدور على انَّ ، هنالك ، عالمين : الواحد روحيٌّ ، والآخر مادِّيٌّ ، وأَن قد حاول العلم ، منذ أوغل الأدوار في القدم ، دخول الأوَّل ، وجوس خلاله ، فحاول عبثاً ، ووقف منه بالعتبة ، وأنَّ الآخر ، وهو الذي يمثل في أَحجامه ، من جبال ، وسهول ، وبحار ، قد كُشفت أَسراره ، وأُحيط بنواميسه ، وما برح العلم ينقل فيه الخطوة بعد الخطوة ، وانَّ هذا البشريَّ الفاني قد علق العالم المادِّيَّ ، لكونه ظاهراً له ، يراه بعينيه ، ويأخذه باصابعه ، وأَعرض عن العالم الروحيِّ ، الذي لا يبين له عن ذات نفسه . وهنا يشنِّع كارّيل على هذا الضَّلال ، الذي اليه انتهى العقل ، ثمَّ يردّ بلآء الحضارة ، وتلاطم اشيآئها ، بين الطمع ، والبطش ، والتنافس ، الى هذا الأصل . والدوآء ، عنده ، هو أن يولِّي العلم وجهه ناحيتي العقل ، والجسم ، شائحاً عن المادِّيَّة ، والميكانيك ، سالكاً في حيث لم تُنقل قدم ، بعد .

وهو كلام في الفلسفة الروحيَّة ، وفي علوم الاجتماع والأحياء ، غاية في الصواب . بل هو طويل الأطراف – كما يقال في كتب الحديث – يصحُّ أن يُفتل منه ، لفلسفة الحقوق الدوليَّة ، صواب آخر . اذ انَّ هذه الفتنة الكونيَّة ، الجارية بين بقعة وبقعة ، بل بين قارَّة وقارَّة ، ترجع ، في مبدإ الحال ، الى طمع في معدن حديد ، مثلاً ، أو منبع زيوت ، أو منبت غلال ، أو مأخذ بأفواه السِّكك ، على أرض ، أو بحر (وسيأتي يوم ، تقول فيه : أو جوّ !) . وهذا ، وشبهه ، يقعان كلَّ يوم ، وتبثُّ اخبارهما الجرائد ، ومحطَّات الرَّاديو ، في آفاق الأرض ، فلا حاجة ، معهما ، الى اقامة الدَّليل . وهو الأمر الذي به اضطربت « جمعيَّة جنيف » ، في قضيَّة السِّلم ، وحارت ، معه ، كيف تجد وجه السَّداد – فامَّا مداواة الطمع بالطمع ، والضغط بالضغط ، فانها لا تفضي الى شفاء . إذ انه لا بدَّ في دوران الايام بالأُمم ، ومصايرها بالممالك ، من وجود

قويّ يضعف ، وضعيف يقوى ، فتعود المسألة بين مبدئ ومعيد ، وآخذ ورادٍ ، الى ما ليس له قرار .

وهكذا تجد انَّ كارّيل قد أصاب المحزَّ ، في ما يتعيَّن من ترك علوم المادَّة ، ومن العناية بعلوم الأحياء ، مستطرداً الى الانتصار لحظّ النفس ، والعقل ، في مشتبك الحضارة القائمة ، ملمِّحاً ، في ألطف المعاريض ، الى العواقب التي انتهت اليها الماديَّة ، واصفاً الزَّيغ ، والتسوية ، معاً ، حتى يكاد يكون هذا الكتاب نادر النَّظير ، في تصانيف علوم العقل ، على ما أُوخذ به من الإيجاز ، الذي يصل ، في بعض المواضع ، الى حدِّ اللَّمح — وانما هو كتاب إجمال ، لا كتاب استقصاء ، تُرى منه هذه الحقائق من منفذ ضيِّق ، طبعاً . وقد كان لا بدَّ للمؤلِّف ، في كتاب ينظر الى أبعد الأغراض ، في العلم الروحيِّ ، وفي فلسفة الاجتماع — عدا ما استُطرد فيه من أثارة الى أثارة ! — من استعمال طائفة من الألفاظ العلميَّة ، التي لا قِبَل ، لكثير من

الخواصّ ، بها ، ناهيك بالعامّيّ ، وبالمبتدئ الشّادي ! فالمؤلّف ، على تباعده عن النسق الاصوليّ ، لم يكن له مخلص منها . فانما هو ، بعدُ ، بصدد علميّ واجتماعيّ ، هذه حروفه الخاصّة به ، وهذه قوالب الأداء ، التي لا يُستطاع طرحها ، في جميع مواطن القول فيه .

ويا ليت شعري ! أيخرج الى الفعل ، هذا الصواب ، الذي يفصّله كارّيل ، فتنحطّ كفّة الروحية ، وتشيل كفّة المادية ، ويُعنى العلم بمواجيد النفس ، ولذائذ نعيم العقل بالتّنقيب ، والكشف ، بعد ان استغرق في خدمة المادّة ، وهموم الحواسّ ، في حضارة الميكانيكيّات ، والطبيعيّات ، والكيمياء ، القائمة ، وتؤول هذه الزّعازع الى ركود ، فيُطمس على الطّمع ، والزّحام ، والإيقاع ، وتهبّ على كرة الارض نسمة الرخاء ؟ !

ولعمرك : انّ ذلك الأمل السائغ ، لا يستحيل جوهره في

العقل ، بل يستحيل تحقيقه ، لأسباب ، منها : انَّ الانسان مطبوع على التَّرف ، وتطلُّب مناعم الحواسّ . وذلك تكفله المادِّيَّة ، ولا تكاد تلتفت اليه الرُّوحيَّة . ومنها : انَّ العلم الروحيّ يتعلَّق بما وراء العقل ، في حين انَّ العلم الطبيعيّ يتعلَّق بما هو دونه — والانسان ، من فطرته ، كلف بما يعلم ، كاره لما يجهل . ومنها : ان ترقِّي امَّة ، في العلوم ، والفنون ، وانحطاط أُخرى عنهما ، يدفع بالأُولى الى طلب البحبوحة ، في جميع مرافق الحياة ، على حساب الثانية . أضفْ قضيَّة الكثرة والقلَّة ، والمدجَّج والأعزل ، وفضل أرض لأرض ، ولون للون ، في الجلدة الآدميَّة ، الى آخر هذه الشُّعبة ، الكثيرة التَّفاريع . . . وليس ذلك بأوَّل صواب ، يقرُّه العقل ، ويكون نقيضه هو الحاصل ، بل انَّه ، هو ، السنَّة المعتصم بها ، والتي يعضُّ عليها البشر بالنواجذ ! ففي الاجتماع الانسانيّ ، لذلك ، اماثيل متعدِّدة ، لا تختلف فيها مفاهيم قدماء ، عن مفاهيم محدثين ، ولا مفاهيم

جمهور ، عن مفاهيم رجل واحد .

. . .

وهذا الكتاب عالميٌّ ، بمعنى الانتشار ، وتطاير الصِّيت ، في الخافقين . فانه قد نُقل الى أَرقى لغات البشر ، واحتُفل به في أَعلى طبقات العلماء . امَّا العربية ، فاوَّل عهدها به هو هذا اليوم .

وإذنْ ، فانَّ للأَب سويد ، عند اهل هذا اللسان العربيِّ ، خدمة بارَّة (وقد أَسعفهم بحاجتهم ، وجاء عند الظنِّ به ، في كفاية أمر الكتاب ، باسلوب نُزِّه عن القلق ، واللَّبس ، والتَّرك لمقتضى اللُّغة) يعرف قدرها ، من يعرف قدر ما يعاني كاتب عربيّ ، يتجرَّد لتعريب هذه الممتعات العلميَّة المحدثة ، وهو الذي لا يزال ، على ما انفتح للغة قومه ، من بابي الاشتقاق ، والنَّحت ، بين مسمًّى لا يُدلُّ عليه باسم ، ومعنىً لا يؤدَّى بمرادف .

وقد لحظ الأب سويد صعوبة نقل الكتاب ،

بالحرف ، الى العربية ، ورأى انَّ الاصل ، نفسه ، يحفل بمصطلحات أُدخلت في الفرنسويَّة ، وتكاد لا تأنس بها ، الى اليوم ، لغة « راسين » ، فكيف الاستقلال بترجمتها الى لغة « الجاحظ » ، والاصطلاح على مرادفها ! فعمد الى تلخيص خاطرات المؤلِّف ، تلخيصاً ضابطاً ، ملتفتاً ، فيه ، الى أَصأَل الدقائق ، وأَبعد التفاريق ، ثمَّ صبَّ جملة ذلك في تفريع ، وتتابع ، ورصف ، حتى عاد هذا الموجز ، وهو أَقرب ما تقع محاكاة نقل لأصل !

ولقد عطف ، طويلاً ، على ما يتَّصل بأَطراف كلام المؤلِّف ، من شؤون البيئة الشرقية ، وعلى ما يُذكر بذلك ، ويؤخذ بمأْخذه ، من مختلف احوالنا ، في هذا المقام . فاستطرد استطراداً أَخرجه من « موقف الدليل من المتحف » الى موقف الدليل ، منه ، وممَّا تطلُّ عليه نوافذه ، من قريب وبعيد . فضلاً عن إجالة قلمه حيث ينبغي تقليب الرأْي ، في نظريَّات المؤلِّف ، على الاجتماع الانسانيِّ ، وتخليص

حقائقها ، واستخراج مخبآتها ، والاشارة الى نادرها ومقيسها ــ فكأنّ الكتاب ، بذلك ، كتابان ، لا واحد ، وكأنّ المؤلِّف مؤلِّفان ، اثنان !

وحيّاه الله ، ما أجمل حفاظه ، وأوثق ذمّته ، وأعرفه بنصوص الأثبات ، إذ هو يدافع ، بين يدي المؤلِّف ، عن حصّة الشرق ، من تاريخ الفكر ، ويشيد بفلاسفة القطعة الصفراء ، من خريطة الكون ، وهم الذين بيّضوا وجه الجنس الانسانيّ ، في علوم المنقول والمعقول ، ووضعوا آساس التفكير ، في المكشوفات والمغيّبات ، وأحاطوا بجليل ودقيق ، ايام كانت أوروبّة ، نفسها ، في جاهليّة لا تميّز معها بين اللّيل والتراب ! فانّ المؤلِّف قد نعى على اساطين الحكمة ، في الشرق الأقصى ، معالجة علم العقل ، واستبطانهم جوهره ، وزعم انّ ما انبثق لهم ، من أعطافه ومكاسره ، ليس الاّ أخيلة صوفيّة ، فانية ، لم تخرج الى التّمحيص . وهكذا تجد انّ العلاّمة كاريل ــ على اعتزاله الفئة المتحذلقة ، من علماء

الإفرنج ، من الذين أُولعوا بنقض كلّ حجر ، من بنيان التأريخ المشرقيّ ، حبًّا لاسلوب التشكيك ، في الحوادث المقرَّرة ، وهوساً بالإتيان بشيء جديد ، الى غير ذا وذا من الأسباب ، حتى كاد ينتهي بهم القول الى انَّ هذه الشمس من الغرب تطلع ! — فكارّيل على انزوائه عنهم ، في كلّ شيء ، وعلى انه النَّضيج ، الرَّاسخ ، العالي المحلَّة في مجد العلم ، ما سلم قلمه من تلك الحزازة الأُوروبيَّة !

الاَّ انَّ هذا الكلف لا يعيب هذا القمر ... فالكتاب ، في جلالة أغراضه ، وطرافة مباحثه ، وفي وضعه المحكم ، وفي تلخيصه واستيفائه ، وسهولة متناوله ، لا يُلزّ به ، في بابه ، نظير ! ولسوف يشرّق ، غداً ، بعد أن غرَّب ، وهو في خير كساء ، من لغة قومنا ، وينزل منازله ، بين أيديهم ، ويجري في ترادف النِّعم على لغتهم .

قضية « النصف الآخر »

ألقيت في الفائزات بالشهادة ، في « الكلية اللبنانية » ، في الشويفات — وكانت البلاد اللبنانية ، يومئذٍ ، على قلق سياسي ، واقتصادي .

في هذا الجوّ العابق بالصِّبا ، والأمل ، والملاحة ، وباللُّطف النسويّ ، والخواطر النسويّة ، تتمنّى كلمات الخطيب لو انها من الزّهر ، ويتمنّى حبر دواته لو انه من ماء الزّهر ! جنّة ، ههنا ، قائمة بأمان الله ، فمن ذا الذي يحمل النّار ، والشواظ ، الى الجنّة ؟ من ترى يجيز لنفسه أن يحمل اليكنّ ، الآن ، أخبار الناحية المضطربة — ناحية الرّجل ، في الوطن !

وإذنْ ، فالحديث حديثكنّ ، والمدار ، فيه ، عليكنّ ، لا غير . لكنّ المرأة هي نصف من تعلمن ... وقد تغالى بعضهم (هم ...) ، فقال : « بل هي النّصف الأفضل ! » .

فكيف يُدار الحديث عليكنَّ ، ولا يكون لنا ، نحن ، فيه نصيب — نصيب النُّصف !

وهكذا يخرج ، في الصواب ، انَّ الناحيتين هما ، في الحقيقة ، ناحية واحدة ، وأنَّ الناحية الحوّآئيَّة ، الحبيبة ، لا تستطيع الانعزال عن أُختها . فنتلاقى ، معاً ، في هموم الوطن ومسرّاته ، وفي التعاون والأُنس ، على طريق الحياة . ثمَّ يصبح هذا الاضطراب ، الذي عندنا ، نحن ، اضطراباً للأُمِّ ، والأُخت ، والبنت ، ورفيقة العمر ، على كونهنَّ مبرّآت الذمَّة من دواعيه ، وأسبابه !

ولقد شآء الله ، لحكمة ، هي فوق طبقة العقل ، أن يُنزع جنسكنَّ من الأضلاع ، ناحية القلب ، عند موضع الرقَة (ومن هنا ، في ما يظهر ، جآء اسمه الغالي : الجنس اللَّطيف !) ، وأن نستقلَّ نحن بالصَّدم القاسي ، لحصان الحياة الجامح ، وبالسَّكب العنيف ، لعرق الجبين ، بين الحديد ، والحجر ، والصعيد الجامد . صنع الله ، لا يد لأحد في تبديله ،

اللَّهمَّ الاَّ اذا طلع الشَّعر الشائك في وجه السيِّدة الحسناء !
والعياذ بالله ، يوم تقلع النُّعومة عن هذه الدنيا ... العياذ بالله ،
يوم تصبح المرأة رجلاً ، وتأخذ من أصابعها خشونة
الميكانيك ، والزُّيوت ، وأهوال الكهربائيَّة ، أو تحزُّ عند
ملتقى الطرآءة ، بين وجنتيها ، ونحرها ... يومئذٍ ، لاتقرُّ
عيناها ، هي ، ولا عيون هؤلآء القائلين بترجُّلها !

فيا سامعات الصوت ، من قريب ، وبعيد : انَّ هذا
الذي يقال له ، في زماننا ، « حقُّ المرأة » ، انَّما هو اسم لا يقع
على مسمَّاه . بل هو ، لعمر كنَّ ، دسيسة على المرأة ، وكيد يكاد
عليها ، وخروج على سنن الطبيعة ، ونقض لقانون الخالق ،
وزراية لصنعه ! ثمَّ انه انانيَّة ، من الرجل ، عريضة ! فكأنه
يريد (والكلام ، هنا ، في سرِّ كنَّ) أن يجرَّ المرأة الى ساحته ،
كيما يطرح ، فوق كاهلها ، جانباً من حصَّته ، في أحمال الهموم !

تسائل عن أبيها كلَّ ركبٍ
وعند جفينةَ الخبرُ اليقينُ ...

ومن لي بصائح ، جافي الصوت ، شديده ، يهتف عنّي ، في كلّ بيت ، فوق أرض لبنان ، يقول : انّ شأن المرأة الطبيعيّ ، لأجلّ ممّا يُعدّ لها من شأن ، غير طبيعيّ ... وانّ احشآء المرأة لم يركّبها الله في جوف الرّجل ... وانّ الأُبوّة ، التي لآدم ، لم يجعلها الله عند حوّآء — كلٌّ ، منهما ، له موضع ، وله طبع ، وطلب ، وخُلق !

ثمّ انّ هذه النعمة السمآئيّة ، نعمة الحبّ الانسانيّ ، ينبغي لها قيام الرّيحانة الناعمة ، التي تعبق في القلب ، وفي البيت ، وفي سمآء المجتمع ، على اختلاف جهاتها ، فكيف يصحّ أن تُزرع الرّياحين جهة الميكانيك ، والزّيوت ، والكهربآئيّة ؟

كان يقال للمرأة ، في العهد الفاطميّ ، في مصر : « سِتُّ الدّار » . ويا حبّذا اللّقب . . . حبّذا كلمة لم تستطع هذه الحضارات العصريّة ان تبلّغ المرأة ، من حقوقها ، بعض ما بلّغتها اياّه تلك اللّفظة الفاطميّة ! ويُحلّ شأن المرأة ، في

المجتمع الانسانيّ ، عن أن تصبح ، هي ، ستّ المصنع ، وستّ المنجم ، وستّ الحقل ، والسيّارة ، والطيّارة ، والدّارعة ، والجحفل في الجند ، والصّدمة في الحرب ! أمّا جماعة أهل السياسة (أهل الأخذ والردّ ، والجزر والمدّ ، ليل نهار) ، فانّ سيّدتي المرأة منصرفة عنهم ، الى ما عظم من أمر هذه المشاقّ الانسانيّة ، مشتغلة عن الزّائل بالباقي ، وعن معركة الكلام الزّائف بمعركة العمل الصحيح ، وعن العبث بالجدّ — بالجدّ جميعاً ! فهي معنيّة بالملك الصغير ، أي رجل الغد الكبير ، الحالم في مهده ، وبالجمهوريّة الصغيرة ، في البيت ، أي حجر الجمهوريّة الكبيرة ، في الوطن ...

ولله ما يكون من طيب الرّيحانة البشريّة ، النّاعمة ، اللّطيفة الورق ، والأرج ، حين تنبت في صفاف العلم ، والتّهذيب ، ثمّ تُنقل ، نقل الرّياحين ، الى الدّور والمنازل ، فتطيب بها الأسرة ، وينشأ النّسل على نسيمها المنعش ، وتترنّح أعطاف المجالس بحديثها ، ورأيها ، ورزانتها ،

وتضيء ليالي الرَّجل بمشاركتها له، في إطلاع نور الأماني، وتنهض بإشرافها بناية الوطن.

أترانا، نحن، أدرى من الله — وأستغفرُ الله! — بترتيب المواضع، وتوزيع الأقساط، على ما تقتضيه هذه الفطرة البشريَّة؟! ... وهو، سبحانه، لم يقل للمرأة: «بعرق جبينك، تأكلين خبزك»! بل يجب لها أن تأكله، بعرق الجبين الآخر، في مختلف أحوال الرَّجل بالحياة — على آدم أن يأتي بمادَّة الخبز، وعليها، هي، عجنها، وجعلها تحت سقف البيت، رغفاناً بيضاً، أو سمراً، يكدن يرقصن من الطَّيب، والهشاشة، والسعادة!

ووالله: انَّ خدَّ طفل، واحد، يطفح بالعافية، فوق صدر أمِّه، ليعادل، في حساب الوطن، ألف خطبة بجمعة، في مجلس نوَّاب! وانَّ كلمة نسويَّة، واحدة، تقال للرَّجل، في مشورة، أو تحريك أمل، أو تهوين بلوى، أو استنهاض عزم، لتعادل الف مقالة محبَّرة، في جريدة يوميَّة!

ويا ايتها الأوانس، الطالعات على الوطن، اليوم، من هذا الافق العلميّ العالي: أهلاً، بكنّ، وسهلاً، في العيون والقلوب، وفي الظلّ المحبوب، من المجتمع اللبنانيّ. وبحسبكنّ من التّباهي، في عالم الرّياحين، انّ منبتكنّ في العلم، والتهذيب، والثقافات العصريّة، هو هذه «الكلّيّة» الحبيبة، القائمة تحت هذه السمآء الحبيبة، سمآء «الشويفات»، ذات الخير، والبركة، في مواسم الوطن.

فاذا خرجتنّ، غداً، الى الدّنيا، وفي يدكنّ الشّهادة، أي المفتاح الخيّر، الذي يفضي الى عالم الفعل، والذي به يتعلّق نعيم الأُسرة، والوطن، فوحقّ «الكلّيّة» عليكنّ، بل وحقّ الاساتذة، وما جهدوا، والوالدين وما بذلوا، أن تضعن مفتاح العلم في باب العقل...

ملحق

سقط عن المؤلف ، عند التمثيل بالطبع ، لباب « وجوه غائبة » ، هذه الخطبة ، الآتية ، وقد كان هناك موضعها ، فالحقت ، الآن ، بالكتاب .

الخطبة الملحقة

وهي التي ألقاها المؤلف ، باسم نقابة المحامين ،
في مناحة المحامي الاستاذ ابرهيم الخوري .

شرَّفتني نقابة المحامين بحمل دموعها ، الآن ، الى مناحة التَّذكار ، على ابنها الفقيد . وانَّه من المجد للرَّصيف الحبيب ، أن تشهد النقابة ، اليوم ، بأنَّ الرزيَّة ، فيه ، هي ايضاً ، رزيَّة علم الحقّ ، في دنيا الباطل ، وأنَّ الخسران ، فيه ، يقع ايضاً ، على فنّ الجدل والبرهان ، وصناعة التَّرجيح والتَّصحيح ! فهذه الشهادة الغالية ، التي ترسلها النقابة ، وتكلِّفني حملها ، قد طيَّبت قلبي ، وهدَّأت عيني ، بعض الشيء ! اذ انَّها كانت عزآء لي ، في يدي ، قبل أن تغدو مفخرةً لإبرهيم ، تدخل في عداد مفاخره — وانما ابرهيم هو حميمي ، أمس ، في ظلّ الحياة ، وهو قبلة شوقي ، اليوم ،

ورآء الغيوب ! فهذا المجد الجمُّ ، الذي أحمله اليه ، الساعة ، يملأ يدي بما في نفسي . فكأنَّ لي فيه ، فوق العزآء ، وفآءً لصديق ، وفوق الوفآء ، تجاهياً برصيف !

ويا أسفاً على إبرهيم ، في الرُّصفآء ، من واحد له ألف سجيَّة : فانه أقبل على الشريعة الأميركيَّة — وهو بعد في ليان العود ، ونأي الغربة ، تحت ذلك الفلك الجديد ! — فتزوَّد ما شآء ، من تشريع يُشرب مع المآء ، لنصٍّ فيه مدمج ، جزل ، محكم الحدود ، محرَّر المسائل ، يجيء على قدر المنع والمعاقبة ، ومن اجتهاد هو سداد الحاجة ، وملء الفراغ ، في بسط الموجز ، وبيان الدَّقيق ، يتلو تلو النصِّ ، ويجري على مواقع غرضه .

ثمَّ يزاول إبرهيم المحاماة ، بين يدي القوس الاميركيِّ ، فيجد انَّ ذلك القاضي ليس ، هو ، الاَّ تمثالاً ، من لحم ودم ، لتلك الشريعة ! عنده ، لا يُشقُّ بعض الكلام من بعض ، ولا يُدخل على الوجدان من باب الطَّلاوة . وانَّما هناك جدٌّ ،

يكاد يخرج الى الجفآء، وكلام لا ينهض الاَّ على جليَّته، بين النقل والعقل. جدَلٌ، ولكنَّه اميركيّ: فتمهُّل، واختصار، وضجَّة بلاصوت...

فطُبع ابرهيم، في التَّفكير، على الوضوح، والاطِّراد، والقصد الى الرأي، وطُبع في الكلام على ما يقال له: «المختصر المفيد»، الذي هو إيجاز الصواب — أي على البلاغة، لا اقلّ، ولا أكثر!

ثم يحنُّ حنينه، بعد أعوام، الى وطنه، وتحمله اليه اشواقه، فيحضر، فيزاول المحاماة، فيقع على هذا المضطرب من الاشتراع: قوانين فوق الحصر، بينا هي فرنسويَّة، اذا هي لبنانيَّة... فضلاً عن الصَّدعات، بين الأصل والفرع، وعن التعبير المعمَّى، والسرد المقطَّع، والغرض الذي لا ينتهي، في شيء، الى شيء! ثمَّ الاجتهاد، الذي يعوزه اجتهاد، والتَّفسير الذي ينبغي له تفسير — الى آخر هذا المضض العلميّ الجسيم. ولكن ابرهيم لم تلتبس عليه

الوجهة ــ وهو الذي استفاد، من النَّسق الأميركيّ، فنَّ تقريب المتناول، وأخذ الأهمّ، واختصار الطَّريق في التَّتبُّع ــ فعكف على درس الشريعة الإسلاميَّة، يعبُّ من الينابيع التي منها غرف الشارع اللبنانيُّ، بعد الشارع العثمانيّ. وشُرح صدره رحمه الله، لهاتيك الممتعات في إحصاء المسائل، واستقراء الدَّقائق، وتخليص النُّصوص، على مقطع الحقّ، وفصل الخطاب.

ولم يفت ابرهيم الوقوف على الشطر المتَّصل بالتَّشريع اللبنانيّ، من التَّشريع الفرنسويّ، بل لقد أقبل على معرَّبه، عندنا، وعلى مترجمه في لغة الإنكليز، وتوفَّر حظُّه من المذاهب الجديدة، في علوم الحقوق الأوروبيَّة.

فلمَّا جاء القوس اللبنانيّ، بعد ذلك، جاءه من ثلاثة آفاق: أميركيّ، فإسلاميّ، ففرنسويّ — أي من الجلاء، والتَّبحُّر، والتَّجديد! فاذا هو المحامي الواضح الطَّريقة، الممعن في التَّنقيب، المتحفِّز الذِّهن لكلّ

منبثق في باب الطَّرافة . ذلك الى لغة سائغة ، وطبع ظاهر ، في حبِّ الإيجاز .

أَمَّا بأْسه في حماية الصواب ، وجرأَته في نقض الرأي ، وتجافيه عن الزُّور ، وأَمَّا صحبته لرصفآئه بالموادعة ، ومبالغته لأصحاب المصالح ، في المشورة ، وتصوُّنه من المكاسب الشائنة ، والوسائل الخافضة ، فانَّما يمثل بعض من هذا ، يُناط جميل الذِّكر ، على وجه الزمن !

هذا هو الرَّصيف الذي تعتدُّ النقابة ، بالصَّبر على فقده ، أَجر الأُمِّ الثَّاكل ، والذي لا تنطوي ، من قلوب الرُّصفآء ، صحيفته !

تعليقتان

الأولى على فصل «كاتب العراق»، من باب «وجوه غائبة»، والثانية على مقدمة «في سبيل الصواب».

١

رسالة من الاستاذ شكر الى الاستاذ الراوي

تعليقاً على فصل « كاتب العراق »

قالت جريدة « الديار » ، في عددها المؤرخ في ١٨ ،من شهر حزيران ، سنة ١٩٤٤ ، بعنوان : « اديب العراق ابرهيم صالح شكر ينعى نفسه ، ويطلب ان يرثيه امين نخله ، ثم يسلم الروح ! » ، ما هذا بعضه :

« تلقى الاستاذ عبد الجليل بك الراوي ، سكرتير المفوضية العراقية في بيروت ، كتاباً في البريد ارسل به اليه الكاتب العراقي الشهير الاستاذ ابرهيم صالح شكر ، الذي يعد في القطر الشقيق معلماً للجيل الجديد في حب الحرية والاخلاص للأدب . وهذا هو الكتاب البليغ :

« سيدي الاستاذ عبد الجليل بك الراوي .

« تحية مشرقة واحترام صميم . وبعد : فان الآلام ينبوع عذب ولكن [ذات الرئة] مرض وبيل ، وهو يلازمني منذ سبعة عشر يوماً . وقد وصل كتابك الأخير والشمعة تذوب والذبالة ترتجف ، وما ادري ! أهذه الكلمات هي آخر ما امليه على ولدي رياض ، أم اني قادر على ان استقبل مشرق الشمس ومشهد الغروب في مستقبلي المكتظ بالمحن والاكدار . وما ادري اتهز الفاجعة اخي الحبيب امين نخله فينشد مرثية الفجر في مأتم الشفق ... ام ماذا ؟ اني سقيم ! وعندي مجموعة ثمينة من الامراض ما زال الطب في حاجة الى بحثها.ولكن [ذات الرئة] انما هي انتفاضة الذبيح ، والشهيد فرقد ، لا مرقد ...

« ان الكتاب لم يصل . وما اطلعت عليه . وقد فات الوقت . ولكن في الأبد المجهول أواجد انا ما اقرأ ؟ لقد ابتسمت للنسيم ، وضحكت من العاصفة ، والآن ابتسم ولا اضحك ، واضحك لئلا ابكي !

« اخي عبدالجليل: اني استقبل الموت ، ولكن اقبس هو من ضياء ، ام ومضة

من نور ؟ ام ان هذا هو نعي اليك ... وفيك العوض الثمين ! » .

. . .

« وقد وصل هذا الكتاب المؤثر في البريد ، ومعه جرائد بغداد اليومية وفيها نعي صاحبه . اي ان هذا الكتاب هو آخر ما جرى به قلم الفقيد الكبير ، رحمه الله . فكان للكتاب في اوساط المدينة رنة حزن وجزع .

« وها ان الاجماع ، في كل مكان ، منصتة لما سيقوله اديب لبنان الاستاذ نخله في صديقه اديب العراق الاستاذ شكر ، الذي جعل كل امنيته من الادب ، كما رأيت في الكتاب ، هو أن يرثيه امين نخله ... » (الى آخر ما هناك ، من تقريظ جزل ، نفحت به الجريدة المؤلف) .

٢

رسالة من الاستاذ المازني الى المؤلف

تعليقاً على مقدمة « في سبيل الصواب »

وهي صورة رسالة ودادية ، من الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني ، رحمه الله ، بخطه ، الى المؤلف ، منقولة ، هنا ، بالزنكوغراف ، لكي يظفر القرآء برؤية خط كاتب ، طالما ُمتعوا باجاداته ، وهي ترفل في حروف الطبع .

البلاغ

تليفون رقم ٥٦١٥٣ — ٥٤٧٩٢

تحريراً في ١٠/٢/ — سنة ١٣٨

سيدي الأخ الكبير

الأستاذ [illegible] حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فاني أكتب هذا اليكم على عجل لأعرب لك عن أسفي لسفرك فجأة ، ومن رجائي أن يمن الله على الوالد الكريم بالشفاء ويسبغ عليه العافية

وكنت قد أصبت بالانفلونزا مرة أخرى - من كثرة التعرض للبرد على ما أظن - فلزمت البيت ولم أستطع أن أسعى الى لقائك . ولا حيلة لي في [illegible] سوء الحظ من المرض . فعسى أن يكون هذا شفيعاً لي عندك ، وان كان [illegible] عن شفيع آخر [illegible] عطفك الرقيق .

شرعت منذ أيام في مراجعة الكتاب [illegible] في أوقات متفرقة ، ومتباعدة لسوء الحظ لكثرة ما [illegible] من [illegible] ، وسأكتب المقدمة بعد الفراغ من [illegible] ، [illegible] المراجعة [illegible]

[illegible] ودوام المصاحبة [illegible]

[illegible]

والخيلاء، وقد أصبح يقول وهو ينبهه بذلك علناً، إنك منا أصدق له، ونصيحتنا له، ولست أنكر أن لنا أو أصحاب أو شبابنا، حق والتقيس، ما يمنع له أن يعتقد بأنك تعده صديقك، فإنك تتيح له بذلك أن يعتز بكثير من الأدب والمودة يعز ذلك وديانا بأدق.

تحياتي إليك، ودعواتي لوالد الكريم بالصحة، وسلامي الى الاخوان جميعاً

المخلص
ابراهيم [illegible]

خاتمة

كان الفراغ من جمع هذا الكتاب في الثالث والعشرين ، من شهر آذار ، سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف .

ويرى المؤلف ان لا بدّ له من ان يذكر ، ها هنا ، ان الترتيب ، الذي مرّ به القارىء ، في فصول « كتاب الملوك » ، لم يُنظر فيه الا الى إدماج التأليف — لا الى تقديم على أقران ، ولا الى إيثار باعزاز .

فهرس

مقدمة الكتاب ١١

« كتاب الملوك »

مقدمة ١٣
بين مصر ولبنان ١٥
فيصل ٢٦
ذكرى الملك ٣٧
سعود في لبنان ٥٠
المقدمة المسيحية ٥٣

« وجوه غائبة »

مقدمة ٦١
تأبين لبناني ٦٣
كاتب العراق ٧٠
الكاتب الحازني ٨٠
كلمة النقابة ٩٠

« في سبيل الصواب »

مقدمة ٩٥
حب التغيير ٩٧
كتاب كاريل ١٠٤
قضية « النصف الآخر » ١١٩

« ملحق »

مقدمة ١٢٧
الخطبة الملحقة ١٢٩

« تعليقتان »

مقدمة ١٣٥
رسالة من الاستاذ شكر الى الاستاذ الراوي ١٣٧
رسالة من الاستاذ المازني الى المؤلف ١٣٩
خاتمة ١٤١

تمّ طبعه في الثامن والعشرين ، من شهر تموز
سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف
« منشورات مطبعة دار الكتب – ١٩٥٤٠٢٢٥٠٠٠١٠١ »
« مطبعة دار الكتب » – بيروت

DATE DUE

JAFET LIB.
17 MAR 2003
Circulation Dept. 2

920.02:N16kA:c.1
نخلة ،امين
كتاب الملوك: معه وجوه غائبة وفي س
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01251215

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

920.02
N16kA

General Library

920.02
N16KA